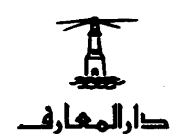
كامل كيلانى

قصص شكسبير

الملك لير

الطبعة الثانية عشرة



دار المعارف

تصميم الغلاف : **محمد أبو طالب**

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

تمهيد

١ – قِصَّةُ عَجُوزٍ

كانَتْ مَمْلَكَةُ « إنجلْترَةَ » – حينَ وَقعَتْ حَوادِثُ هٰذِهِ القِصَّةِ – تَمُرُّ بأَحْداثٍ وخُطُوبٍ (مَصائِبَ) ، لا عَهْدَ لَها بأَمْثالِها مِن قَبْلُ . وإلَيْكَ ما تَقُصُّهُ عَجوزٌ نَيَّفَتْ (زادَتْ) عَلَى خَمْسينَ وَمِائَةٍ مِن السِّنينَ . قالَتِ العَجوزُ :

« لقَدْ عِشْتُ أَكْثَرَ مِن مِائَةٍ وخَمْسينَ عامًا . ورَأَيْتُ فى طُفولَتى – مِن الكَوارِثِ والْمِحَنِ – ما لَمْ يَخْطُرْ لإنسانٍ عَلَى بالٍ . ولا زِلْتُ أَذْكُرُ تلكَ العَواصِفَ الْهُوجَ حينَ اكْتَسَحتِ الغاباتِ ، ثُمَّ أَعْقَبَها فَيَضانُ الأَنْهارِ ؛ فأَغْرَقَ مِن البلادِ ما أَغْرَقَ ، وأَهْلَكَ مِن الْحَرْثِ (الزَّرْع) والنَّسْلِ (الأَوْلادِ) ما أَهْلَكَ !

لا أزالُ أذكُرُ – إلى اليَوْمِ – ذٰلكَ العهْدَ الَّذى شَهِدْتُه فى طُفولَتى ، وأَتمثَّلُ (أَتَصَوَّرُ) حَوادِثَهُ البعيدَةَ ، كأَنَّما وقَعتْ أَمْسِ . ولٰكِنَّ ما حدَثَ فى هٰذا العامِ ، قدْ مَحا – أوْ كادَ – كلَّ

ما اسْتَعْظَمْتُهُ مِن الأَحْداثِ الْماضِيَةِ . ولَيْسَتْ تلكَ الْمَصائِبُ الّتى حلَّتْ ببِلادِنا – فى ذٰلكَ الزَّمَنِ البَعيدِ – إلّا شَيْئًا يَسِيرًا تَفِهًا (لا قيمَةَ لهُ) ، إذا قِيسَتْ بِما وقَعَ فى هٰذا العامِ .

فقَدْ تألَّبَتْ (تَجمَّعَتْ) قُوَى الشَّرِّ ، واجْتَمعَتِ الكَوارِثُ ، وتَتابَعتِ الأَحْداثُ ، وتَفَنَّنَتِ الأَبالِسَةُ والشَّياطِينُ فى إغْراءِ النَّاسِ بضُرُوبٍ (أصْنافٍ) مِنَ الظُّلْمِ والقَسْوَةِ والأَنانِيَّةِ (حُبِّ الذَّاتِ) ، وَما إلى ذٰلكَ مِن أَلْوانِ الشَّرِّ ، وأفانِينِ الشَّقاء (أنْواعِ الشِّدَّةِ والعُسْرِ) .

وفى شَمالِ « إنْجلترَةَ » طَغَتْ أمْواهُ البُحَيْراتِ ، وأغْرَقَتْ مِنَ السُّكَّانِ والمَساكِنِ آلافًا .

ثمّ جاء الشِّتاءُ ؛ فَخَرجَتِ الذِّئابُ وأصْنافُ الْوُحوشِ الضّارِيَةِ مِنْ مَكامِنِها ، والْتَهَمَتِ الأَغْنامَ فى رائِعَةِ النَّهارِ ، دُونَ أنْ تُبالِيَ كائِنًا كانَ .

وعاثَتِ الْخَنازِيرُ الْبَرِّيَّةُ فى أَزِقَّةِ القُرَى : فَمَلأَتِ الْقُلوبَ ذُعْرًا (خَوْفًا) ، وقَسَتْ قُلوبُ النَّاسِ ، ونَمَتْ بَيْنَهُمْ بُذُورُ الشِّقاقِ والتَّفرِقَةِ ، وحَلَّ الْخِصامُ مَحلَّ الْوِئامِ (الْوِفاقِ) . وسَرَى الْخُلْفُ

بينَ الأَزْواجِ ، ثمّ انْتقلَتْ عَدْواهُ إلى الْأَطْفالِ ؛ فأَصْبحتِ الْبِلادُ جَحيمًا لا يُطاقُ . »

٢ – مِهْرَجانُ الْمَلِكِ

هٰذا بعضُ ما قَصَّتْهُ عَجوزُ ذٰلِكُم الزَّمانِ ، ورَأَتْهُ رُؤْيَةَ الْعِيانِ . وقدْ تَوَخَّيتُ (تَعَمَّدْتُ) أنْ أُثْبِتَهُ لَكُم – أيُّها الْأَصْدِقاءُ الأَعِزَّاءُ – لتَعْرِفُوا متى وَقَعتْ حوادِثُ هٰذهِ القِصَّةِ ؟ وفى أىِّ عهْدٍ – مِن عُهودِ الاِضْطِرابِ – مُثِّلَتْ فُصُولُها المُحْزِنةُ ؟ .

وكانَ بَدْءُ هٰـذهِ الأَحْداثِ الْمُفَزِّعةِ يَوْمَ الْمِهْرَجانِ الّذى أقامَهُ الْمَلِكُ « لِير » فى قَصرِهِ الكَبيرِ ، مُنْذُ أَلْفَىْ عامٍ .

وقدِ اعْتَزَمَ الْمَلِكُ أنْ يَقْسِمَ مُلْكَهُ العظيمَ بيْنَ بناتِهِ الثَّلاثِ ، ويَرْفَعَ عَن كاهِلِهِ أَعْباءَ المُلْكِ (أثْقالَ الحُكْمِ) ، ويُريحَ شَيْخُوخَتَهُ ، ويَقْضِىَ أيَّامهُ الأَخيرَةَ فى أمْنٍ وسَلامٍ ، وادِعَ الْخَلَدِ (مُسْتَريحَ القلْبِ) ، ناعِمَ الْبالِ .

وكانَتِ الأَنوارُ ساطِعَةً فى كلِّ مكانٍ مِنْ قَصْرِ الْمَلِكِ ،

تَنْعَكِسُ أضْواؤُها ٱلبَهيجَةُ على أَعْمِدَةِ القَصرِ الذَّهَبِيَّةِ ، وتصاويرِهِ المُبْدَعَةِ الفَنِّيَّةِ . وهِيَ تُمثِّلُ ٱنْتصارَ المَلكِ « لِير » على أَعْدائِه ، في زَمنِ صِباهُ .

° ° °

وكان المُتأمِّلُ لا يَملِكُ نَفْسَهُ مِن الحَسرَةِ والأَسَف ، كُلَّما وَقعَتْ عَيْناهُ علَى هٰذا ٱلفَتى القَوِيِّ « لِيرَ » ، الجَرِيءِ الباطِشِ (الآخِذِ بِعُنفٍ) ، الَّذي تُمثِّلُهُ تِلكَ التَّصاويرُ المُعْجِبَةُ ، وقابَلَها بِهٰذا الشَّيْخِ « لِير » ، المائِلِ (الواقِف) في الحَفْلِ ، وقدْ جَلَّلَ الشَّيْبُ رأْسَهُ ، وقَوَّسَتْ قَناتَهُ السِّنُونَ (حَنَتِ الأَعْوامُ ظَهرَهُ) ؛ فٱنْتظمَتِ الرِّعْشةُ يَدَيْهِ النَّاحِلَتَيْنِ ، وأَصْبَحَ يَمْشِي إلى الفَناء (المَوْتِ) ، بِخُطُواتٍ سَريعَةٍ .

وَقدِ ٱجْتمعَتْ في ذٰلِكَ المِهْرَجانِ حاشِيَةُ المَلكِ وقُوَّادُهُ وسَراةُ البِلادِ (رُؤَساؤُها) ، وجَلَسَ إلى جانِبِهِ وزيرُهُ المُخْلِصُ الأَمينُ : « كَنْتُ » ، ونَديمُه (صاحِبُهُ) المُخْتارُ : « بُهْلُولٌ » .

١ – عَهْدُ الشَّيْخُوخة

تَبْدَأُ هٰذهِ الْقِصَّةُ حينَ بَلَغَ الْملِكُ « لِير » الثمانينَ مِن عُمُرهِ، وأصْبَحَ شَيْخًا يَجْمَعُ – إلى ضَعْفِ الْجِسْمِ – خَطَلَ الرَّأْيِ (فَسادَ التَّفْكيرِ)، وسُوءَ التَّدْبيرِ .

وكان الشَّيْخُ « لِير » – فى هٰذهِ الْمَرْحَلةِ الأَخيرةِ مِن سِنيهِ – شَديدَ السَّآمةِ والضَّجَرِ . وقد زَهَّدَتْهُ الشَّيْخوخةُ فِى كُلِّ شَىْءٍ مِن مَباهِجِ الْحَياةِ : فَلَمْ يَبْقَ لهُ مِن أُمْنِيَّةٍ (رَغْبةٍ) يَرْجوها، ويَأْنَسُ بِها فى الْحياةِ إلّا بناتُه الثَّلاثُ .

وكان الْملِكُ « لِير » يُحِبُّ هٰؤُلاء البناتِ حُبًّا شَديدًا، ولا يُطيقُ الصَّبْرَ على بِعادِهِنَّ .

٢ – بَناتُ الملك « لِير »

وكانتْ فتاتانِ – منْ بناتِهِ الثّلاثِ – قد زُوِّجَتا أَميرَيْنِ . أمّا الثّالثةُ

— وهىَ صُغْراهُنَّ — فقدْ جاءَ الآنَ ملكُ « فرَنْسا » وأَحَدُ أُمراء « إنجلترة » ، وَنَزَلا ضَيْفَيْنِ على الْملك « لِير » وأقاما فى قصْرِه ، وكان كِلاهُما راغِبًا فى أَنْ يَتَزَوَّجَ « كُرْدِلْيا » : صُغْرَى بناتِه . وَأَمرَ الْملكُ « لِير » باسْتدعاء بناتِه الثَّلاثِ ، وقالَ لهُنَّ :

« لقَدْ عَنَّ لى — يا بناتِىَ العَزيزاتِ — أَن أَقسِمَ مُلْكِى بَيْنكُنَّ . ولٰكِنَّنِى أُحِبُّ أن أَتعرَّفَ — قَبْلَ كُلِّ شىْء — مَدَى (مُنْتَهَى) حُبِّكنَّ إيَّاىَ ، لِأَرَى رَأْيِى . »

٣ — حَديثُ « جُنْرِيلَ »

فَتَقَدَّمَتْ كُبْرَى بناتِه ، واسمُها « جُنْرِيلُ » ؛ وكانَتْ — عَلَى الحقيقةِ — امرأَةَ سَوْء (خَبِيثَةً) ، تَجْمَعُ — إلى رِيائِها النَّادرِ — لُؤْمًا وخُبْثًا عَظِيمَيْنِ . ولم تكن تُضْمِرُ لأبيها شيْئًا من الْحُبِّ ، ولٰكنَّها رَأَتْ أَمامَها فُرْصَةً سانِحَةً لِتَمْلِيقه (مُخادَعَتِه) والتَّوَدُّدِ إليهِ ، طَمَعًا فى الْمِيراثِ الَّذِى لوَّحَ (أشارَ) لَها بِهِ .

فقالَتْ لَهُ ، وهىَ تتظاهَرُ بالْحُبِّ والوفاء والْحُنُوِّ :

« إنَّ حُبِّيكَ (مَحَبَّتِي لَكَ) – يا أَبي – لَأَجَلُّ وأَعْظَمُ من أَن تُعَبِّرَ عنه الأَلفاظُ . كَيْفَ لا ، وأَنْتَ أَعَزُّ عَلَيَّ من إنسانِ عَيْنِي (سَوادِها وَحَدَقَتِها) ، وأَثْمَنُ لَدَيَّ من نفسى ، وحُرِّيَّتِى وجَمالى ، وصِحَّتِي ! »

فَابتهجَ الْمَلِكُ « لِير » بِسَماعِ هذا الثَّناء الزَّائفِ (الْمَغْشُوشِ) ، وقالَ لَها مَسْرُورًا :

« ما دُمْتِ تُحِبِّينَنِي إِلَى هٰذا الْحَدِّ ، فَإِنِّى جَدِيرٌ بأن أَمْنَحَكِ ثُلُثَ مُلْكِى . فأَنْتِ – فِيما أَرَى – حَقِيقَةٌ بِهٰذِهِ الْمُكافأَةِ . »

٤ – حديثُ « رِيجانَ »

ثُمَّ التفتَ إلى بِنْتِه الوُسْطَى قائِلًا :

« إِلَى أَيِّ حَدٍّ بلغتْ مَحَبَّتُكِ أباكِ ، يا رِيجانُ ؟ »

فقالتْ له مُرائِيَةً مُتَوَدِّدَةً (مُظْهِرَةً مِنَ الْمَحبَّةِ والْمَوَدَّةِ خلافَ ما هِيَ عَلَيْهِ) : « إِنِّى أُحِبُّكَ – يا أَبَتاه – قَدْرَ ما تُحِبُّكَ أُخْتِى « جُنْرِيلُ » إِنْ لَمْ أَزِدْ عليها ؛ فليْسَ لى فى هٰذِه الدُّنيا كُلِّها شُغْلٌ يَشْغَلُنى عَنْ

ذِكْراكَ ، أَوْ يُحَوِّلُنِى عَنْ حُبِّيكَ ، أَوْ يُنْسِينِى بِرَّكَ بِى . وما أذكُرُ أنَّنى غَفَلْتُ عَنِ التَّفْكيرِ فيكَ — يا أَبَتِ — لَحْظَةً واحدةً . »

ففرِحَ الْملكُ « لِير » ، وتملَّكَهُ الزَّهْوُ والإعجابُ ، وتَطَلَّقَتْ أَسارِيرُهُ (تَهَلَّلَ وانْفَرَجَتْ تَجاعِيدُهُ) بَهْجَةً وحُبورًا بما سمِعَ ، وأثْنَى عَلَى بِنتِه « رِيجانَ » أَحْسنَ الثَّناء ، وشَكَرَ لها هٰذا الإخلاصَ النَّادرَ ، وأكبرَ فيها وفاءها العجيبَ ، ثُمَّ قال لها :

« لكِ مِنِّى — أَيَّتُها البنتُ البارَّةُ — ثُلُثُ مُلْكِى . فَاْهْنئِى به ؛ فأَنتِ بهٰذهِ الْمُكافأةِ جَدِيرةٌ . »

وأَكْبرَ الْملكُ ذٰلك الْحُنُوَّ ، واشْتَدَّ إعجابُهُ بما سَمِع ، وشكَرَ لِابْنَتَيْهِ هٰذا الْحُبَّ النَّادرَ ، والوفاءَ العجيبَ .

٥ — حديثُ « كُرْدِلْيا »

ثُمَّ التفتَ الْملكُ « لِير » إلى فَتاتِه الصُّغْرَى : « كُرْدِلْيا » ، وقال لَها :

« لقد جاء دَوْرُكِ — يا نُورَ قَلْبى — ولَسْتُ أَشُكُّ فى أَنَّ حُبَّكِ إِيَّاىَ أَعظمُ منْ حُبِّ أُخْتَيْكِ . وقَدِ ادَّخَرْتُ (احْتَفَظْتُ) لكِ

ثُلُثَ المُلْكِ ، وَهُوَ أخصبُ بُقعَةٍ فى مَمْلَكَتِي وَأَغْنَاها فَحَدِّثِينِي بِمِقْدار ما تُضْمِرِينَه لِي (ما تُخْفِينَهُ فِي ضَمِيرِكِ) من حُبٍّ وَوَلاء . »

فقالت له « كُرْدِليا » : « ليس لَدَيَّ ما أُحدِّثُكَ به ، يا أَبَتاهُ ! »

فقال لها مَدْهُوشًا : « ماذا تَقولِينَ ؟ أَلَيْسَ لَدَيْكِ ما تُحَدِّثِينَنى بِهِ ؟ »

فقالت له « كُرْدِلْيا » : « لا شَيْءَ عِنْدِى ، يا أبتاهُ . »

فقال لها المَلِكُ « لِير » : « كَأَنَّكِ لا تُحِبِّينَنِي ، أَيَّتُها الفَتاةُ ! أَعِيدِى عَلَى مِسْمَعَيَّ جَوابَكِ الأَخيرَ . »

فقالت « كُرْدِلْيا » : « إِنِّى أُحِبُّ جَلالَتَكَ بِمِقدارِ ما يَحْتِمُهُ عَلَيَّ الواجبُ الأَبَوِيُّ ، لا أَكْثَرَ ، ولا أَقَلَّ . »

٦ – نُبْلُ « كُرْدِلْيا »

وإنَّما قالتْ « كُرْدِلْيا » ذلك ، ولَمْ تَصُغْ لأَبيها عِباراتِ المديحِ والثَّناءِ الخَلَّابَةَ – كما فَعَلَتْ أُخْتاها منْ قَبلُ – لأَنَّها أَنِفَتْ (كَرِهَتْ) أن تَسْلُكَ مسالِكَ الرِّياءِ ، وَسَمَتْ بنفسِها عن أنْ تكونَ مُخادِعَةً مُمَلِّقَةً (تَقُولَ بلسانِها ما لَيْسَ فى قلبها) .

وكانت عَلَى يقينٍ من لُؤْمِ أُخْتَيْها وخُبْثِ طَوِيَّتهما (نِيَّتهما) ؛ فاحتَقرَتْ منْهُما ذلكَ الثَّناءَ الزَّائفَ ، الَّذِى نَطقَتا به ، لِتَخْدَعا أباهُما عن حَقيقةِ نَفْسَيْهما ، رَغْبةً فى أنْ تَظْفَرَا بِمُلْكهِ الْعَظيمِ .

وكانتْ « كُرْدِلْيا » عارِفةً أنَّ أُخْتَيْها تَنْوِيانِ الغدْرَ بأبيهما الشَّيْخِ ، وأنَّهما لا تَمْحَضانهِ الوُدَّ (لا تُضْمِرانِ لَهُ صادِقَ المودَّةِ) ، ولا تُؤَدِّيانِ له شَيئًا مِنْ واجباتِ الأُبُوَّةِ عَليْهما ، وإن كانَتا قَدْ أَغْرَقَتاهُ بعباراتِ الْمَديحِ والثناء الَّتى لا طائلَ تَحْتَها (لا فائِدَةَ مِنْها) ، لِتَظْهَرَا بِغيْرِ مَخْبَرِهما (باطِنِهما) الحقيقِىِّ .

ثُمَّ قالت « كُرْدِلْيا » مُسْتَأْنِفةً : « ما أَنا إِلَّا بِنْتُكَ .. وقَدْ أَوْجَدْتَنى من الْعَدَمِ ، وخَصَصْتَنى بِحُبِّكَ وعَطْفِك . ولَيْس لى إِلَّا أَنْ أَقْدُرَ ذلِك لَكَ ؛ فأُبادِلَكَ حُبًّا بِحُبٍّ ، وعَطْفًا بِرِعايةٍ . فإِنَّ واجبَ أُبُوَّتكَ يَقْضِى علىَّ أَن أَكُونَ وَفِيَّةً لَكَ ، بارَّةً بِكَ ، وأَنْ أُطِيعَ أَوامرَكَ ، وأُحِبَّكَ وأُجِلَّكَ الإِجْلالَ كلَّه . »

٧ — غضبُ « لير »

كان الْمَلكُ « لير » يُفْرِدُ (يخُصُّ) بِنْتَهُ الصَّغيرةَ « كُرْدِلْيا »

بِحُبٍّ عظيمٍ ، ويُؤْثِرُها (يُفضِّلُها) عَلَى أُخْتَيْها الكُبْرَى والوُسْطَى ، ولا يُطيقُ فِراقَها . وكان يُرْهِفُ أُذُنَيْهِ لِسَماعِ آياتِ الإعجابِ به ، والثَّناءِ عليهِ ، وَيَحْسَبُها مُتفنِّنةً فى صَوْغِ عِباراتِ الوَلاءِ (الإخلاص) ، أكثرَ من أُخْتَيْها . فلما سَمِعَ منها ذٰلكَ الكلامَ الفاتِرَ ، خابَ أَمَلُهُ فيها ، وامتلأتْ نفسُهُ سُخْطًا (غَضَبًا) عليْها ، وتبَرُّمًا (تَضَجُّرًا) بها ؛ لأنَّهُ ظَنَّ أنَّ حُبَّها إيَّاهُ أَقَلُّ منْ حُبِّ أُخْتَيْها .

وَلوْ عَرَفَ الخَبَرَ (لوْ عَلِمَ الحقيقةَ) ، لأَيْقَنَ أنَّ « كُرْدِلْيا » أَخْلَصُ إنسانٍ له ، وأَبَرُّ ابْنَةٍ بِهِ ، وأَنَّها لَمْ تَشَأْ أَن تَتَّجِرَ بِحُبِّها أَباها ، كما فَعَلَتْ أُخْتاها .

ولوْ أَنَّ أَباها سَأَلها مِثْلَ هٰذا السُّؤالِ ، فى غَيْرِ هٰذا الوقتِ ، لأفْضَتْ إليهِ (صَرَّحَتْ لهُ) بما تُضْمِرُ له من وفاءٍ وبِرٍّ لا مثيلَ لهما .

أَمَا وقدْ سَأَلها فى ذٰلك الوَقْتِ الَّذى يَقْسِمُ فيه مِيراثَهُ بين بَناتِهِ الثَّلاثِ ، وَرَأَتْ مِن رِياءِ أُخْتَيْها ما رَأَتْ ؛ فقد سَمَتْ بها عِزَّةُ نَفْسِها ، وأَبَى لها إباؤُها وسُمُوُّ أَخْلاقِها أَنْ تُجارِيَهُما فى هٰذا التَّمليقِ ، وتَنْدَفِعَ مَعَهُما فى ذٰلك التَّلفيقِ .

أَمَّا أَبوها « لِير » فَقَدْ أَنْسَتْهُ الشَّيْخُوخَةُ واجباتِ الْحَزْمِ ، وَدفعَهُ الْهُتْرُ (ضَعْفُ العقلِ) إلى سُوءِ الرَّأْيِ ، وخَطَلِ التَّقْدِيرِ (خَطَئِهِ) ؛ فلَمْ يرَ فى كلامِ « كُرْدِلْيا » إلَّا زَهْوًا وكِبْرًا وتَعالِيًا وغَطْرَسَةً . وما هُوَ – من شىء – من هٰذه المعانى بِسَبِيلٍ .

وَتمادَى (استمرَّ) « لِير » فى غَضبِهِ ، وَأَسْلَمَ لِسُخطِهِ العِنانَ (تَرَكَ لِغضَبِهِ الزِّمامَ) ؛ فانْتَهرَ « كُرْدِلْيا » (زَجَرها) ، وَأمرَها بالِاسْتِخْفاء عن ناظِرَيْهِ فى الحال ، ثمَّ قَسَمَ الثُّلُثَ الباقىَ من مُلْكِهِ – الَّذى كان يَدَّخِرُه لها – بيْنَ أُخْتَيْها الغادِرَتَيْنِ .

٨ – مِهْرَجانُ المَلِكِ

وَأقامَ المَلِكُ « لير » مِهْرَجانًا عَظِيمًا ، جَمَعَ فيه سَراةَ الدَّوْلةِ وَأَعْيانَها ، وأعْلَنَ أمامهُمْ ما قَرَّرَهُ واشْتَرَطَهُ . وَلَمْ يَحْتَفِظْ لِنفسِهِ بِشىءٍ مِنَ المَظاهرِ إلَّا بلَقَبِ الْمَلِكِ ، وبِمائةِ فارسٍ يكونونَ له حاشِيَةً ، على أنْ يَنْزِلَ ضَيفًا عَلَى إحْدَى بِنْتَيْهِ شَهْرًا ، ثُمَّ يَقْضِىَ الشَّهْرَ التَّالِىَ فى قَصْرِ الثَّانيةِ ، ثمَّ يُقيمَ – فى الشَّهر الثَّالثِ – فى قَصْرِ



الأُولَى ، فإذا جاء الشَّهرُ الرَّابعُ عاد إلى الأخرَى ، وهكذا حَتَّى يَنْتهِيَ أجَلُهُ .

وقَدْ عَجِبَتِ الحاشِيةُ مِنْ هذا القَرارِ وَدَهِشُوا له . ولكِنَّهمْ لَمْ يَجْرُؤُا عَلَى مُخالَفتِه ، وَلمْ يَسْتطِعْ كائِنٌ كانَ أن يُعارِضَ المَلِكَ فى رَأيِه ، ما خلا وزيرَهُ الحكيمَ الرّاشد « كَنْت » ، الّذى أقْدَمَ عَلَى النُّصْحِ لهُ بالإقْلاعِ عنْ فِكْرَتِهِ الخاطئَةِ (تَرْكِها) ؛ فكانَ نَصيبَهُ — على صِدْقِ نَصيحَتِهِ — التَّهْدِيدُ والوَعِيدُ . فلَمْ يَخْشَ الوزيرُ النَّاصحُ تهْدِيدَ الشَّيخِ « لِير » ، ولم يَخَفْ وَعيدَهُ .

فاغْتاظَ الشَّيْخُ « لير » ، وَجَعلَ يَقُولُ لهُ : « إنَّ القَوْسَ مُحْضَرَةٌ ، وقَدْ أُعِدَّ فِيها السَّهْمُ . وَما هِيَ إلّا لَحْظَةٌ حَتَّى يَنْطَلِقَ السَّهْمُ القاتِلُ منها . فاحْذَرْ أنْ تكونَ هَدفًا لهُ فتهْلِكَ . »

ثُمَّ أنْشَد ، يُنْذِرُهُ ويتوعَّدُهُ :

« انحَنَتِ القَوْسُ ، وكادَتْ تَرْمِي
وَفُوِّقَ السَّهْمُ ، وَكادَ يُصْمِي
فَلا أَجِدْكَ هَدَفًا لِسَهْمِي . »

فأجابهُ الوزيرُ الشجاعُ : « إذا اندفعَ سهمُ الموتِ إلى قلبي فمزّقهُ ، فإنّي لا أخشى شيئًا . ولْتفعلْ بي أقدارُ الدّهرِ وأحوالُ الزّمن ما تشاء . » ثمّ أنشدَ :

« إنْ ينطلِقْ سهمُ الرّدى ، من الوترْ
إلى فؤادي مُصْـمِيًا ، فينفطِرْ
فلسْتُ هيّابًا تصاريفَ القدرْ . »

فصاحَ فيهِ الشّيخُ « لِير » : « ويْلكَ أيّها الغبيُّ . ألا تُقلِعُ عن لجاجَتِكَ وعِنادِكَ ؟ » فأجابهُ الوزيرُ محزُونًا يُحذّرُهُ عاقبةَ أمْرِهِ ، ويُظْهِرُهُ على هوْلِ ما يعتزِمُ إنفاذَهُ : « إنّك ترْمِي نفْسَكَ في حُفْرةِ الظُّلْمِ والاعْتِداء .. فعلَى مَهلِكَ . إنّ ما تفْعلُهُ شيْءٌ عظيمٌ ، وإنّ الظُّلْمَ آخِرتُهُ سيِّئةٌ ، وخطرُهُ جسِيمٌ . » ثُمّ أنْشدَ :

« في وهْدةِ البَغْيِ أراكَ تنْحدِرْ
فلا تُسارِعْ ، إنّها إحْدَى الكُبَرْ
إنّ طريقَ البَغْيِ مَخْشِيُّ الخطَرْ . »

فاشتدّ غضبُ المَلِكِ وسُخطُهُ على وزيرِهِ ، وأمر بطردِه ونفْيِه من

المدينة ، وتوَعَّدهُ بالقتل إذا بَقِىَ فى مَمْلكته بعد اليوْمِ .

فقال الوَزيرُ : « إنِّى أخْلَصْتُ لكَ فى نَصِيحَتِى ؛ فَلْتَتَّعِظْ بما أقولُ. والنُّصْحُ أثْمَنُ ما يُحْفَظُ ، وهوَ دَليلٌ على الْوَفاء والإخلاصِ فى أوْقاتِ الشِّدَّةِ وَحوادِثِ الزَّمَنِ . » ثمَّ أنْشَدَ :

« مَحَضْتُكَ النُّصْحَ ؛ فَحاذِرْ ، واعْتَبِرْ
واعْلَمْ بأَنَّ النُّصْحَ أغْلَى مُدَّخَرْ
مِن صادِقِ الوُدِّ ، إذا الدَّهْرُ غَدَرْ . »

ثُمَّ خرجَ مَحْزُونًا مَقْهورًا ، وقد أدْرَكَ أنَّ آخِرَةَ مَلِيكِه قد قرُبَتْ ، وأنَّ مَصْرَعَهُ وشِيكٌ (هَلاكَهُ مُسْرِعٌ إليهِ) .

٩ — وَداعُ « كُرْدِلْيا »

قُلْنا — آنِفًا — إنَّ خاطِبَيْنِ قد جاءا يرغَبانِ فى الزَّواجِ بالأَميرةِ « كُرْدِلْيا » ، وهما مَلِكُ « فرَنسا » ، وأحدُ أُمَراء « إنجلْترَةَ » .

فأمَّا الأَميرُ الإنجليزىُّ ، فقد كَفَّ (امتنع) عن طلب الزَّواج بالْأَميرةِ « كُرْدِلْيا » ، بعد أن فقدَتْ حقَّها فى مِيراثِ أبيها .

وهُنالِكَ تَوَجَّهَ مَلِكُ « فَرَنْسَا » إلى الأميرةِ « كُرْدِلْيا »، وأصرَّ (عَزَمَ) على الزَّواجِ بها ، بعد أن خَذَلها أبوها وخطيبُها الآخَر .



وقد أُعْجِبَ مَلِكُ « فرنْسا » بِصراحَةِ « كُرْدِلْيا » ، وأَكبرَ فيها العِزَّةَ التَّي أظْهرَتْها فِي تِلك السَّاعةِ ، إذْ رَضِيَتْ بالنُّزولِ عَنْ نَصِيبِها فى ٱلْمُلكِ ، ورأَتْ أنْ تَخْرُجَ منَ الدُّنْيا فقِيرَةً مُعْدِمَةً (لا تَمْلِكُ

شيئًا)، مُؤْثِرَةً (مُفَضِّلَةً) ذٰلكَ عَلَى أنْ تَتَّجِرَ بِحُبِّ أَبيها ، وتَتَّخِذَهُ سُلَّمًا إلى مُشارَكَةِ أُخْتَيْها فى الْمِيراثِ .

وَبَعْدَ زَمَنٍ قَصيرٍ رَأى مَلِكُ « فَرَنْسا » أَنْ يَعودَ بِزَوْجَتِهِ « كُرْدِلْيا » إلى وَطَنِهِ ، فاسْتَأْذَنَتْهُ فى وَداعِ أُخْتَيْها . وَقَدْ فارَقَتْهُما دامِعَةَ الْعَيْنِ ، مَحْزُونَةَ الْقَلْبِ ، وَأَوْصَتْهُما خَيْرًا بِأَبيهِما . فَأَغْلَظَتا لَها الْقَوْلَ ، وخاشَنَتاها فى الْحَديثِ (اشْتَدَّتْ كُلٌّ مِنهُما عَلَيْها فى الْكَلامِ) ، وَقالَتا لَها ساخِرَتَيْنِ :

« لَسْنا فى حاجَةٍ إلى تَوصِيَتِك ؛ فَلَسْتِ بِأَبَرَّ مِنْ كِلْتَيْنا بِه ، وما هُوَ بِأَكْرَمَ عَلَيْكِ مِنْهُ عَلَيْنا . »

أَمَّا أَبُوها الْمَلِكُ « لِير » ، فقدْ قالَ لِزَوْجِها غاضِبًا :

« اذْهَبْ بِها إلى حَيثُ شِئْتَ ؛ فَما أُطِيقُ رُؤْيَةَ وَجْهِها بَعْدَ الآنَ . »

فقالَ لَهُ مَلِكُ « فَرَنْسا » : « لِيَكُنْ ما تَشاءُ . فَوَداعًا . »

ثُمَّ سافَرَتْ « كُرْدِلْيا » — صُغْرَى بَناتِ الشيخِ « لِير » — مَعَ زَوْجِها مَلِكِ « فَرَنْسا » إلى وَطَنِهِ ، حَيثُ اتَّخَذَتْهُ لَها مُقامًا (مكانًا تُقيمُ فِيه) بَعْدَ ذٰلكَ الْيَوْمِ .

١ – فى قصر « جُنْريلَ »

هَدأَتْ ثائرةُ الْمَلِكِ « لير » ، بَعْدَ أَنْ أَقْصَى (أَبْعَدَ) بِنتَه الْمخلِصَة الوفيَّةَ « كُرْدِلْيا » عَنْ مَملكَتهِ ، وَهُوَ يَحْسَبُها مِثالَ الْعُقُوقِ (عَدَمِ الْقِيامِ بالْواجبِ نَحْوَ أَبيها) والْغَدْرِ والكبرياءِ .

وذَهبَ الْمَلِكُ عَلَى الْفَوْرِ إلى قَصرِ بنتهِ « جُنْريلَ » . ولٰكِنَّه ما عَتَّمَ (ما لبِثَ) أنْ أَدْرَكَ حقائقَ الأشْياء الَّتى كانَ الرِّياءُ والنِّفاقُ يَسْتُرانِها عَنْ ناظِرَيْهِ ، ويَحْجُبانِها عَنْ عَيْنَيْهِ . وَعرَف أنَّ الأَلْفاظَ ، المَعْسُولَة ، والمَدائحَ المُنَمَّقَةَ (الْمُزَخْرَفَةَ) الزَّائِفَةَ ، لا تُغْنِي عَنِ الْحقِّ شَيْئًا .

لَقَدْ تَمَلَّكتِ الْبلادَ – بَعْدَ أبيها – وَظَفِرَتْ (فازَتْ) بِكلِّ ما مَنَحها إِيَّاهُ مِنْ سُلطانٍ وقُوَّةٍ ، واسْتَتَبَّ (اسْتَقَرَّ) لها الْمُلْكُ ؛ فكانَ أوَّلَ همِّها أنْ تَتَنكَّرَ (تتغيّر) لِمَنْ أَحْسنَ إليها ، وتَجْزِيَه على صَنيعهِ الْمَشْكورِ أقبَحَ جَزاء ، وتكافِئَهُ إساءةً بإِحسانٍ ، وعُقُوقًا ببِرٍّ ، وغَدْرًا بوفاء .

٢ – خُبْثُ « جُنْرِيلَ »

ورأَتْ « جُنْرِيلُ » أنَّ أباها قد أصْبحَ – بَعْدَ أيَّامٍ قليلةٍ – مُمِلاًّ ثقيلًا لا يُطاقُ ، وأسْتكْثرَتْ عليهِ مائةَ الفارسِ الَّذِين أسْتَبقاهُم لِنفْسهِ ، ليُرافِقوهُ فى حَلِّهِ وتَرْحالهِ (فى إقامَتِه وسَفَرِهِ) .

وأصْبحَتْ « جُنْرِيلُ » تَلْقَى أباها – كُلَّما وقَعَ نظرُها عليه – بوجْهٍ عَبُوسٍ ، وتَقطِبُ حاجبيْها (تَعبِس) كُلَّما ناداها ، ولا تُلَبِّى (لا تُجيبُ) له رَجاءً ، ولا تُنَفِّذُ له مَشيئةً .

واقتدَى بها خَدَمُها فى مُعاملةِ هٰذا الشَّيخِ ؛ فأصبحوا لا يُلَبُّونَ له أمرًا ، ولا يُعامِلونهُ بغَيْرِ الإِهمالِ والِاحْتقارِ وقِلَّةِ الاكْتراث .

٣ – وفاء الوَزير

أمَّا الوزيرُ الوفِيُّ « كَنْت » ، الَّذى طَرَدهُ الشَّيخُ « لير » مُكافأةً له على صِدْقِ وَفائه ، وأمَرَ بنَفْيهِ من مَدينَتهِ ، فقد أَبى عَليهِ إِخْلاصُهُ لمَليكه أن يتْرُكَهُ نهْبَ المَصائبِ والأحْداثِ (تَنْهَبُهُ وتَفْتَرِسُهُ) ،

ونُهْزَةَ الْخُطُوبِ والكوارِثِ (فُرْصَةً للبَلايا والنّكَبات). فلم يَخْرُجْ من الْمَدينةِ ؛ ولٰكنَّهُ غَيَّرَ مِن هَيْئته ، وبدَّلَ من شكْلِه ، وتَزَيًّا بِزِيِّ الْخَدَم ، ثم عادَ إلى مَليكهِ خادِمًا أَمينًا ، يَرْعاهُ ويَحْرُسُه ، ويَرْقُبُهُ عن كَثَبٍ (عَنْ قُرْبٍ) .

ورَضِيَ الملكُ « لِير » بهٰذا الْخادم الْجديدِ ، وهو لا يعرِفُهُ . ولم ينقضِ عَلَى عوْدتهِ إلى مليكهِ يومٌ كاملٌ ، حتّى رَأى خادمًا مِن خَدَمِ « جُنْرِيلَ » يُجادِلُ المَلِكَ « لير » ، ويَستهينُ به ، لِيُرْضِيَ بذٰلك سَيِّدَتَه « جُنْرِيل » .

فغَضِبَ الوزيرُ ، ولم يَحتَمِلْ وقاحةَ ذٰلك الخادمِ الجرِيء ، وثارَتْ ثائرتُه (غَضِبَ) عليهِ : فَصَفَعَه (ضرَبَهُ) صَفْعَةً كادَتْ تُذْهِلُه (تُذْهِبُ عَقْلَهُ) وتُرْدِيه (تُهْلِكُه) ، جزاءً لهُ على سَفاهَتِه وتَطاوُلِهِ على سَيِّدِهِ . فابتَهج المَلكُ « لير » بِوفاء هٰذا الخادمِ الْجَديدِ وَإخْلاصِه ، وهُوَ لا يَعْرِفُ أَنَّهُ وزِيرهُ النَّاصِحُ « كَنْت » ، الّذِى لم يأْلُ (لَمْ يُبْقِ) جُهْدًا فى تَحْذيره عَواقبَ التَّسَرُّعِ والبَغْي .

٤ — « البُهْلُولُ »

ولقَدْ تفرَّقَ أصْحابُ « لِير » ، بَعْدَ أن زالَ عَنْهُ سُلْطانُهُ ، ودالَتْ دَوْلتُه (انْقَلَبتْ رأْسًا عَلَى عَقِبٍ) . ولَمْ يَبْقَ إلى جانبِهِ



— بَعْدَ وزيرِهِ الأَمينِ — غيْرُ نَدِيمهِ الَّذِى كانَ يُلَقِّبُه مَرَّةً بالْبُهْلول ؛ لِخفّتِهِ ودُعابَتِهِ (ظَرفهِ وفُكاهته) ، كما يُلَقِّبُه — مَرَّةً أُخْرَى —

بالْمَجْنُونِ ؛ لِما اْعْتادَهُ مِن خَلْطِ الْجِدِّ بالْهَزْلِ والْمُجُونِ (عَدَمِ المُبالاةِ) ، وإلْباسِ الْحقيقَةِ ثَوْبَ الْباطِلِ .

وكانَ « الْبُهْلُولُ » يُحاوِلُ جاهدًا أنْ يُدْخِلَ السُّرُورَ والْبَهْجَةَ على نَفْسِ مَليكِهِ ، ويَتَفَنَّنُ فى تَسْلِيَتِهِ بكُلِّ وسِيلَةٍ .

٥ — ذَكاءُ « الْبُهْلولِ »

وكانَ « الْبُهْلُولُ » يُحاوِلُ أنْ يُبَصِّرَ « لِيرَ » بعاقِبَةِ ما فَعل . وقدْ أدْرَكَ — بِثاقِبِ بَصَرِهِ (بِنَظَرِهِ النّافذِ) — ما تُدبِّرُهُ « جُنرِيلُ » لِأَبيها مِن الْمَكايدِ ، وعَرَف أنَّها تَوَدُّ جاهِدَةً أَنْ تَتَخَلَّص منهُ .

وقدْ عَلِمَ « البُهْلُولُ » أَنَّ « جُنْرِيلَ » لَنْ تَغفِرَ لِأَبيها وخادِمهِ ما لَقِيَهُ منْهما خادِمُها ، وهى الَّتى أَوْعَزَتْ (أشارَتْ) إليهِ — كما أسْلَفْنا — بِأَنْ يَعْصِىَ أَمْرَ أبيها ، ولا يُلَبِّىَ له طَلبًا .

٦ — قِصَّةُ العُصْفورِ والغُراب

فدَخَلَ « البُهْلولُ » يُغَنِّى مُداعِبًا (مُمازحًا) سَيِّدَهُ ، مُتَوَخِّيًا

(قاصِدًا) أنْ يُنْذِرَهُ بالْكارِثةِ قُبَيْلَ وُقُوعِها ؛ حتَّى لا يُفاجَأَ بها .
وكان يُلَمِّحُ له بِما يُرِيدُ ، ويقُول : « أخْبَرَتْنا القِصَصُ الَّتى نقلَتْها إلَيْنا العُصُورُ الْماضِيَةُ : أَنَّ عُصْفورًا أَبْصَرَ غُرابًا وَلِيدًا فى عُشِّهِ ، يَكادُ يَهْلِكُ ؛ فقَرَّبَ منهُ ما يَبْعَثُ فى جِسْمِهِ الدِّفْءَ ، وَسَقاهُ ما يَشْفِيهِ .
فلَمَّا نَشِطَ الغُرابُ الصَّغيرُ ، وتقَدَّمَتْ به الأَيَّامُ ، وبَلَغَ مَبْلَغ الشَّبابِ ، دَفَعَتْهُ نَفْسُهُ الشِّرِّيرَةُ إلى أنْ يَقْتُلَ العُصْفورَ الَّذِى قَدَّمَ لهُ فَضْلًا ، وأسْدَى إليْهِ جَمِيلًا ؛ وذلكَ سُوءُ الْجَزاء . »

ثُمَّ يُنْشِدُ :

« قدْ حَدَّثَتْنا أصْدَقُ الأَمْثالِ ... فيما مَضَى مِنَ الزَّمانِ الْخالِى
بقِصَّةٍ تُرْوَى عنِ الْعُصْفورِ ... أَبْصَرَ – فى وَكْرٍ منَ الوُكورِ –
فَرْخَ غُرابٍ مُشْرِفًا عَلَى التَّلَفْ ... فقالَ لِلفَرْخِ : اطْمَئِنَّ ، لا تَخَفْ
وَأَدْفَأَ الفَرْخَ ، وَداواهُ ، ولَمْ ... يزَلْ بِهِ ، حتَّى شَفاهُ من أَلَمْ
وكانَ عِنْدَهُ العزيزَ الْغالِى ... وَأَكْرَمَ الأَبْناءِ والعِيالِ
حَتَّى إذا الْفَرْخُ غَدا غُرابا ... لَمْ يرَ – غَيْرَ قَتْلِهِ – ثَوابا
وأَهْلَكَ الْغُرابُ مَنْ رَبَّاهُ ... جَزاءَ ما قَدَّمَ مِنْ حُسْناهُ . »

فَصَيّحَ « لِيرُ » مُتَعَجِّبًا : « وماذا تَعْنِي بهٰذهِ القِصّةِ ، يا بُهْلُول ؟ »
فَأَجابهُ ضاحِكًا :

« أَراكَ – يا عَمِّ – فَعلْتَ فِعْلَهُ وسوف تُجْزَى فى الْحياةِ مِثْلَهُ
أنتَ شَبيهُ ذٰلكَ الْعُصْفورِ . »

فصَرَخَ « لِيرُ » يتوَعَّدُهُ بالْوَيْلِ (الْعذابِ والْهلاكِ) ، إذا تَمادَى فى دُعابَتِهِ (مُزاحِهِ) . فقال « البُهْلولُ » ضاحِكًا :

« أُعْطيكَ – إن كَذَّبْتَنِي – طُرْطُورِى ! »

٧ – حاشيَة الْمَلِكِ

وما أَسْرَعَ ما تَحَقّقتْ فِراسةُ « الْبُهلول » ؛ فإنَّ « جُنْرِيلَ » : تلكَ الْبِنْتَ الْخَبيثةَ الْعاقَّةَ (الّتى لَمْ تُراعِ حَقَّ الأُبُوَّةِ) ، لَم تَشَأْ أن تَـتْرُكَ أباها يَقْضِى بَقِيّةَ حَياتِهِ وادِعًا هانئًا مُسْـتَرِيحَ الْقَلْبِ ، وأَبَى عليْها خُبْثُها ولُؤْمُ طَبْعها إلّا أن تُنَغِّصَ عليْهِ عَيْشَهُ ، وتُـكَدِّرَ عليهِ صَفْوَ حَياتهِ . وَقدِ اسْتَدْعَتْهُ إليْها بعْدَ أيَّامٍ قليلةٍ ، ثُم قالتْ له :
« لَقد مَلَأَتْ حاشِيتُكَ – لِكَثْرَةِ عَدَدِها – قَصْرِى ، وأَصْبَحْتُ

لا أُطيقُ جَلبَتَهُمْ وضَوْضاءَهُم (أصْواتَهُمُ العاليةَ) بعدَ هٰـذا اليَوْمِ .
وأَراكَ جَديرًا أَنْ تتخيَّرَ نُخْبَةً (خُلاصةً) قليلةً — على نَصِّ سِنِّكَ (فى مِثْلِ عُمْرِكَ) — لِمُرافقَتِكَ ، إنْ شِئْتَ . »

٨ — دَعْوَةُ « لِيرَ »

فغَضِبَ المَلِكُ « لِير » مِمَّا قالَتْهُ بِنْتُه ، وقالَ لَهَا :
« إنَّ حاشِيَتِي جَميعًا مِن خِيرَةِ النّاسِ أَدَبًا ومَعرفةً ، وليْسَ فى اسْتطاعةِ أحدٍ أن يَتَّهِمَهُمْ بِمِثْلِ هٰذهِ التُّهَمَةِ الكاذِبةِ . »
ثمَّ أمرَ الملكُ باسْتِدْعاء جِيادِه (خَيْلِه) وإسْراجِها ، مُعْتَزِمًا أنْ يُغادِرَ بِنْتَهُ على الفَوْرِ ، والْتَفَتَ إليها عابِسًا ، وقال :
« لَمْ يَبْقَ فى مَقْدُورى أن أصْبِرَ على هٰذا التَّجَنِّى (ادِّعاء التُّهَم) ، يا « جُنْرِيلُ » . وإنِّى لأَحْمَدُ اللهَ على أنْ رَزَقَنى بِنْتًا أُخْرَى غَيْرَكِ ، تُكْرِمُ وفادَتى (قُدُومى عليْها) ، وتَقْدُرُ أُبُوَّتى لَهَا ، وتعْرِفُ من حقِّى عليْها ما أنكَرْتِهِ أنْتِ ، أَيَّتُها العاقَّةُ الجاحِدةُ . »
ثُمَّ دعَا عَلَى بِنْتِه « جُنْرِيلَ » أن يُصيبَهَا اللهُ بِالْعُقْمِ ؛ فلا تَلِدَ

مَدَى حَياتِها ، أوْ يرزُقَها بشَرِّ الأبناء ؛ لِيَجْزِيَها مِثْلَ هٰذا الْجَزاء الْغادِرِ ، وأن تمُوتَ شَرَّ مِيتَةٍ .

٩ — دُعابة « البُهْلولِ »

وخَشِيَ « الْبُهْـلولُ » أن يَطْغَى الْحُزْنُ عَلَى قَلْبِ « لِيرَ » فَيُهلِكَه ؛ فَجَرَى — عَلَى عادتِه — فى مُداعَبتِهِ (مُمازَحَتِه) ، وَراح يُغَنِّيهِ مُنْشِدًا :

«يا لَيْتَ لى — ياعَمِّ — طُرْطورَيْنِ ! أُعْطِيكَ طُرْطورًا مِنَ الإثْنَيْنِ
وأَجْعَلُ الآخَرَ نُصْبَ عَيْنِى . »

فقالَ : « وماذا أصْنَعُ بِطُرْطُورِكَ ، يَا « بُهْلولُ » ؟ ضَعْهُما مَعًا نُصْبَ عيْنِكَ (أمامَها) ! »

فَأَجابهُ ضاحكًا : « إنَّ بنتَيْكَ لا تُعْطِيانِكَ شيئًا لَوْ طَلَبْتَهُ . وما أحَقَّكَ بأن تُرَوِّىَ خَدَّيْكَ (تَبُلَّهُما) بدَمْعَتيْنِ ، جَزاءَ خَطَئِكَ فى نُزُولِكَ لهُما عَن الْمُلْكِ . » ثُمَّ أنْشدَهُ :

« اُطْلُبْهُ — إنْ شِئْتَ — مِنَ الْبِنْتَيْنِ ! أَلَسْتَ أسْكَنْتَهُما قَصْرَيْنِ ؟

أَلَسْتَ أَعْطَيْتَهُمَا تاجَيْنِ ؟ ثُمَّ وهَبْتَ المُلْكَ ذِئْبَتَيْنِ ؟
فالْيَوْمَ تَلْقَى أَوَّلَ النِّصْفَيْنِ تُخْلِيكَ من بَيْتٍ مِن الْبَيْتَيْنِ
وفى غَدٍ تَشْقَى بِطَرْدَتَيْنِ جَزاءَ ما أَخْطَأْتَ فى حُكْمَيْنِ
إِنَّكَ قد خُدِعْتَ خُدْعَتَيْنِ فَرَوِّ خَدَّيْكَ بِدَمْعَتَيْنِ
وابْكِ عَلَى نَفْسِكَ مَرَّتَيْنِ . »

فقالَ لَهُ « لِيرُ » :

« ما أَصْدَقَ ما تَقولُ، أَيُّها الْمَجْنونُ العاقِلُ ! ولَكِنْ فاتَ وقْتُ النَّدَمِ ، وَلَيْسَ لنا مِنْ حيلَةٍ فى رَدِّ ما فاتَ . عَلَى أَنَّ بِنْتِيَ الثَّانِيةَ طَيِّبَةُ الْقَلْبِ ، ولَنْ تَدَّخِرَ (لَنْ تُبْقِيَ) وُسْعًا فى إِسْعادى ، وتَوْفيرِ جالِباتِ الْبَهْجَةِ (أَسبابِ السُّرُورِ) لى .

وسَتُرِيكَ الأَيَّامُ صِدْقَ ما أَقولُ . »

١٠ — عندَ « ريجان »

واعْتَزَمَ الْمَلِكُ « لِير » أن يَقْضِيَ بقِيَّةَ عُمُرِه فى قَصْرِ بِنْتِه الثانِيَة « رِيجان » ؛ فَبَعَثَ إليها رَسولَه الوَزِير « كَنْت » ، بِكتابٍ

يُنبِئُها (يُخبِرُها) فيه بما اعتزمَهُ وقرَّرَهُ ، ويَعِدُها بالذَّهابِ إليها بعد وقتٍ قليلٍ .

ولم يَكَدِ الوزيرُ « كَنْت » يَبْلُغُ قصرَ « رِيجانَ » ، ويُفضِي إليها (يُخبِرُها) بما لَقِيَهُ أبوها الشَّيْخُ « لِير » مِن عُقوقٍ (إنْكارٍ لِحقِّهِ) ، حتَّى جاءَ رَسولٌ من أُخْتِها « جُنْرِيلَ » ، وَأَسْلَمَها كِتابَها الَّذى بَعثَتْ بهِ إليها ، تُوصِيها بأَبيها شرًّا ، وتُوغِرُ صَدرَها (تُثِيرُ غَضَبَها) عليه ، وتُدبِّرُ لها خُطَّةً خَبيثةً لِلخلاص منهُ ومن أتْباعِه وحاشِيَته .

١١ — حَبْسُ الوَزيرِ

وما أَتَمَّتْ « رِيجانُ » كِتابَ أُخْتِها قِراءةً حتَّى أَغْلَظَتِ القَوْلَ لِرَسُولِ أبيها . فلَمَّا حاوَلَ أنْ يُذَكِّرَها بما لِأَبيها عليها مِن فُروضٍ وحُقوقٍ ، ثارَتْ فى وَجْهِه مُغْضَبَةً ، وَأَمرَتْ بحَبْسِهِ فى سِجْنٍ مُظلِمٍ ، جزاءً له عَلَى جُرْأَتِه .

١٢ — مَقْدَمُ « لير »

وَبَعْدَ قليلٍ من الزَّمَنِ قَدِمَ عليها الشَّيْخُ « لِير » . وما عَلِمَ أنَّ رَسولَهُ قد سُجِن ، وَأَنَّ بنتَهُ « رِيجانَ » هِيَ الَّتِي أمَرَتْ بِحَبْسِهِ ، حَتَّى زادَ هِياجُهُ ، واشْتَدَّ غَضَبُهُ عليْها .

فقالَتْ لَهُ « ريجانُ » :

« خفِّفْ مِنْ سُخْطِكَ — أيُّها الْوالِدُ الشَّيْخُ — فَما أظُنُّ أنَّ أُخْتِى قد أخرَجَتْكَ مِن قَصْرِها إلّا بَعدَ أنْ نَفِدَ صَبْرُها مِنْ لَجاجَةِ أتْباعِكَ (تَخاصُمِهِمْ) وصَخَبِهِمْ (صَيْحاتِهِم) ، وضاقَ ذَرْعُها (ضَجِرَتْ) بِما اقْتَرَفُوهُ (ارتكبُوهُ) مِنْ شُرُورٍ وآثامٍ .

وهِيَ — بِلا شَكٍّ — فى سَعَةٍ مِن الْعُذْرِ ، لِأَنَّ قُصُورَ الْمُلُوكِ جَديرَةٌ أنْ تُنَزَّهَ (تُبَرَّأَ وتُخَلَّصَ) من عَبَثِ الْعابِثِين ، وَلَهْوِ الْهاذِرِين (السَّاخِرِين فى القَوْلِ) . »

١٣ — حُقُوقُ الوالِدَيْنِ

لَمْ يَسْتَطِعْ « لير » أنْ يُصَدِّقَ ما سَمِعَتْهُ أُذُناهُ مِنْ بِنتِهِ الثَّانيَةِ ،

بَعْدَ ما رَآهُ مِنْ عُقوقِ بِنتِهِ الْأُولَى ؛ فَخُيِّلَ إِلَيْهِ أنَّه حالِمٌ ، وكادَ يُغْمَى عليْهِ من فَرْطِ الأَسَى والْحُزْنِ . ولٰكِنَّهُ لَمْ يَرَ فى الجَزَعِ (شِدَّةِ الْحُزْنِ) فائدةً ؛ فاعْتَصَمَ بالصَّبرِ (لَجَأَ إِلَيْهِ) – ما وَسِعَه حِلْمُهُ – وقال لِبِنْتِهِ ، وهُوَ يُغالِبُ الدَّمْعَ جاهِدًا :

« ما أَظُنُّ أنَّكِ – مَهْما عَقَقْتِ أَباكِ – بالغَةٌ بعضَ ما بَلَغَتْهُ أُخْتُكِ من جُحودٍ وَعقُوقٍ !

وَإِنِّى لإِخالُ أَنكِ أَقْرَبُ إِلى البِرِّ بِأَبيكِ، وَأَدْنَى إِلى الوَفاءِ والْحُنُوِّ عليه ، والإِشْفاقِ عَلَى شَيْخُوخَتِه . فحاذِرِى أَن تَنْهَجِى نَهْجَ « جُنْرِيلَ » (تَتَّبِعِى طَرِيقَهَا) ، فَتُخَيِّبِى تَأْميلَ أَبيكِ ، وَتَمْلَئِى قَلْبَهُ يَأْسًا ؛ بَعْدَ أَنْ وَهَبَ إِلَيْكِ أَثْمَنَ ما يَمْلِكُ ، وَلَمْ يَضَنَّ (لَمْ يَبْخَلْ) عليكِ بِأَعَزِّ ما لَدَيْهِ من مُلْكٍ وَجاهٍ وَمالٍ . »

١٤ – مَقْدَمُ « جُنْرِيلَ »

وَما أَتَمَّ قَوْلَه ، حَتَّى قَدِمَتْ بِنتُه « جُنْرِيلُ » ؛ فانْضَمَّتْ إِلَى أُخْتِها « رِيجانَ » ، وَظَلَّتْ تُوغِرُ صدرَها عَلَى أَبيها الشَّيخِ ؛ حتَّى

قَسا عَليه قَلبُها مرَّةً أُخرَى ، وسارَتْ مَعَها فى الْعقوقِ إلى أَبْعَدِ مَدًى .

فقالتْ « رِيجانُ » : « لقَدِ اسْتَكثَرْتَ عليكَ أُختِي أَنْ تكونَ حاشِيَتُكَ مُؤلَّفَةً من خمسينَ فارسًا . أمَّا أنا ، فأَستكثِرُ عليكَ نِصْفَ هٰذا الْعَدَدِ ، وأَرَى أن خمسةً وعِشْرِينَ فارسًا كَثِيرٌ عَلَيْكَ . وَما أَدْرِى : ما حاجَةُ مِثْلِكَ — أَيُّها الشَّيْخُ — إلى مِثلِ هٰذا الْعَدَدِ منَ الْحُرَّاسِ وَالْجُنْدِ ؟ بَلْ ما حاجَتُكَ إلى عَشَرَةِ فُرْسانٍ ؟ بَلْ إِنِّى لَأَسْتَكْثِرُ علَيْكَ خَمْسَةً !

صَدِّقْنِي إِنَّكَ لَنْ تَحْتاجَ إلى فارِسٍ واحِدٍ ، فَكَيْفَ بِجَمْعٍ مِنَ الْفُرْسانِ ؟ إنَّ خَدَمِى لَيُؤَدُّونَ لكَ — أَيُّها الشَّيْخُ — كلَّ ما تُرِيدُ ؛ فَما انتِفاعُ مِثلِك بالحاشِيَةِ ؟ »

١٥ — غَضْبَةُ الشَّيْخِ

وَثَمَّ (هُنا) أَدْرَكَ الشَّيْخُ « لِير » أَنَّ ابنَتَهُ الثانِيَةَ لَيْسَتْ أَبَرَّ بِهِ مِنَ الأُولَى ؛ فاشْتَدَّ على بِنْتَيْهِ سُخْطُهُ ، ودعا عَلَيْهِما جميعًا

أنْ تَلقَيا الْجَزاء الْعادِلَ ، وَأَنْذَرَهُما بِسُوءِ الْمَصِيرِ .

وَلا تَسَلْ عَمَّا استَوْلَى عَلى قَلْبِهِ مِنَ الْيَأْسِ ، بَعْدَما تَبَيَّنَ مِنْ غَدْرِ بِنْتَيْهِ ما لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُرَ لهُ عَلى بالٍ ؛ فَصاحَ مُتَأَلِّمًا مَحْزُونًا : « أَخْرِجا مَعى رَسُولى وَبُهْلُولى ، وَلَنْ تَرَيانِى بَعْدَ الْيَوْمِ ! »

١ – هُبوبُ العاصفَة



كانَتِ اللَّيْلَةُ عاصِفَةً ، قارِسَةً (شَديدَةَ الْبَرْدِ) . وَقَدْ أَدْرَكَ الشَّيْخُ « لِير » أَنَّ بِنْتَيْهِ الْغادِرَتيْنِ قَدْ أَسْلَمَتاهُ إلى تِلْك الزَّوابِعِ الثّائِرَةِ ، وَالأعاصيرِ الْهائِجَةِ ، دُونَ أَنْ تَأْخُذَهُما فيهِ رَحْمَةٌ ؛ فَأَسْلَمَ

لِجَوادِهِ الْعِنانَ ، وقَدْ كادَ الْيَأْسُ يُذْهِلُهُ ، وَبَدا عَلَيْهِ الْخَبالُ (اخْتِلاطُ الْعَقْلِ) ؛ فَلَمْ يُبالِ الزَّمْهَرِيرَ (بُلُوغَ الْبَرْدِ أَقْصاهُ) ، وَلَمْ يُشْفِقْ عَلى شَيْخُوخَتِه الْمُهَدَّمَةِ ، مُؤْثِرًا (مُخْتارًا) أَنْ يُهْلِكَهُ الْبَرْدُ ، على أَنْ تُذِلَّهُ بِنْتاهُ .

وَظَلَّ يُلَوِّحُ بِذِراعَيْه فى الْفَضاءِ كَأَنَّما يَتَوَعَّدُهُما ، وَيُمِيلُ رَأْسَهُ إلى الْخَلْفِ ، وَيَصِيحُ مُغْضَبًا حانِقًا ، حَتَّى لَيَحْسَبُ مَنْ يراهُ أَنَّ بِهِ مَسًّا منَ الْجُنُونِ . وَلَمْ يَبْقَ مَعَ الشَّيْخ « لير » — فى مِحْنَتِهِ — غيْرُ صاحِبَيْهِ الْمُخْلِصَيْنِ : « كَنْت » و « الْبُهْلُول » .

٢ — الأعاصيرُ والرُّعودُ

وَاشْتَدَّتِ الزَّوْبَعَةُ عُنْفًا ، وَتَحَدَّرَ الْمطرُ (سَقَطَ) ، ثُمَّ هَمَى (نَزَلَ بِكَثْرَةٍ) كأَنَّهُ السَّيْلُ الْجارِفُ ، وَجَلْجَلَتِ الرُّعُودُ الْقاصِفَةُ ، وَدَوَّتِ الرِّياحُ الْعاتِيَةُ (الْعَنِيفَةُ) ، وَخُيِّلَ إلى النَّاسِ أَنَّ الْبَراكينَ انْفَجَرَتْ ، وَأَنَّ الْكَواكِبَ انتَثَرَتْ (تساقَطَتْ) ، وأَنَّ الْجَحِيمَ سُعِّرَتْ (الْتَهَبَتْ) . وَبدا ذٰلكَ الشَّيْخُ الْهِمُّ (الْهَرِمُ) ، وَقَدْ قَفَّ

ـ شَعَرُهُ (وَقَفَ)، وَتَقَوَّسَ ظَهْرُهُ ، وَانْحَنَتْ قامَتُهُ الْمَدِيدَةُ ، بَعْدَ أَنْ أَلَحَّتْ عليْهِ جالِباتُ الدَّمارِ (مُسَبِّباتُ الْهَلاكِ) ، وَعَصَفَتْ بِهِ عاصِفاتُ الأَقْدارِ .

٣ — نَشِيدُ العاصِفَةِ

وَكانَ الشَّيْخُ « لِير » يَصْرُخُ مُتَحَدِّيًا هٰذِهِ الْقُوَى الْعاتِيَةَ الْمُتَأَلِّبَةَ (الْمُتَجَمِّعَةَ) عليهِ ، مُصَيِّحًا صَيْحاتٍ مُفَزِّعَةً هائلَةً ، وَهُوَ يَقُولُ :

« هُبِّي أَيَّتُها الرِّياحُ الْقاسِيَةُ الْعَنِيفَةُ ، الَّتِي تُهْلِكُ الْمَدائِنَ ، وَتُفْسِدُ الأَرَضِينَ : الْمُنْبَسِطَةَ مِنْها ، والْمَمْلُوءَةَ أَحْجارًا ورِمالًا ، والَّتِي لا زَرْعَ فيها ولا نباتَ . ثم أَنْزِلِى مَطَرَكِ ، يُغَطِّى الْأَبْنِيَةَ الْعالِيَةَ ، وَيُغْرِقُ الْأَراضِيَ الْمَزْرُوعَةَ . » ثم يُنْشِدُ مُتَوَعِّدًا :

« زَوابِعَ الأَمْطارِ : هُبِّي مَعَ الْإِعْصارِ
فى اللَّيْلِ والنَّهارِ عاصِفَةً مِنْ نارِ
مَرْهُوبَةَ الدَّمارِ تَأْتِى عَلَى الْأَمْصارِ
والسَّهْلِ والقِفـــارِ

وَأَمْطِـــرِي ثُلُوجَا   تُجَـلِّلُ   الْبُرُوجَا
وتُغْرِقُ الْمُرُوجَا . »

وتَشْتَدُّ الْعاصِفةُ هُبوبًا ، وَيَزْأَرُ الرَّعْدُ مُجَلجِلًا قاصِفًا ، ويَبْرُقُ الْبَرْقُ ، يكادُ سَناهُ (ضَوْءُهُ) يَخْطَفُ الأبصارَ ، ويُوهِمُ من يَراهُ أنَّ الكُرَةَ الأرْضيّةَ تَهْتَزُّ مِنْ أقْطارِها (جوانِبِها) ، وأنَّ الدُّنيا قد زُلزِلَتْ زِلْزالَها . فَيَشْتَدُّ صِياحُ الشَّيخِ ، وَهُوَ يقول : « دَوِّي — أيَّتُها الرِّيحُ — وَعَوِّي ، وَدَمِّرِي بَيْتيَّ وَبِنْتيَّ ، عَنَيْتُ (قَصَدْتُ) الذُّئَيْبَتَيْنِ . ثُمَّ انْثَنِي (عُودِي) إليّ ، فأمْطِرِيني جاحِمَكِ الْعَتيَّ (نارَكِ الْمُوقَدَةَ) ، كِفاءَ خَيْبَتيَّ (عَلَى قَدْرِهما) ، في ظَنِّيَ الْحَسَنِ بِهِما . » ثُمَّ أنشد :

« يا ريحُ : دَوِّي ، دَوِّي   ويا رُعُودَ الْجَوِّ :
لا تَهْدَئِي ، وَعَوِّي   وانْتَزِعِي حُنُـــوِّي
وَأَحْرِقِي عَــــدُوِّي

• • •

وَدَمِّرِي بَيْتَيَّـــا   وَأَهْلِكِي بِنْتَيَّـــا
عَنَيْتُ : ذِئْبَتَيَّا   ثُمَّ انْثَنِي إلَيَّا

فأَمْطرِى عَلَيَّـــا جاحِمَكِ العَتِيَّـــا
جَـــزاءَ خُدْعَتَيَّا وأَلْهِبِى جَنْبَيَّـــا
كِفاءَ خَيْبَتَيَّا . »

ثُمَّ تُعاوِدُه الذِّكْرَياتُ الْمُؤْلِمَة ، وتترَدَّدُ فى سَمْعِهِ كلماتُ بِنْتَيْهِ الَّتى كانَتا تُملِّقانِه بِها – لِتَسْتَوْليا عَلَى مُلْكِهِ – ويُقابِلُ بينَهما وبينَ ما رآهُ منْ غَدْرِهما بِهِ ، واسْتِهانتِهما بِخَطَرِهِ (قَدْرِهِ وقِيمَتِهِ) ؛ فيسْتأْنِفُ صِياحَه مُفزَّعًا ، وَيقول مُوَلْوِلًا مُرَوَّعًا :

« لَقَدْ خَدَعَنِى ما نَمَّقَتْ (ما زَيَّنَتْ) بِنْتاىَ مِنَ الْكلامِ ، وَقَدْ دَهانِى ما دَهانى (أصابَنِى ما أصابَنِى) ، جزاءَ ما صَنَعْتُ فى الانْخداع بِهما . فَيأَيَّتُها الرِّياحُ : اشْتَدِّى حتَّى تَنْسِفِى (تُدَمِّرِى) الشَّامِخاتِ (الْجِبالَ العالِيَةَ) . » ثُمَّ أَنْشَدَ :

« لِيرُ الَّذِى أَغْراهُ ما نَمَّقَتْ بِنْتاهُ
دَهاهُ ما دَهاهُ جَزاءَ ما أَمْضاهُ
وقَـــدَّمتْ يَداهُ
دَوِّى رِياحًا قاصِفَهْ وأَلْهِبِيها عاصِفَهْ
لِلشَّامِخاتِ ناسِفَهْ . »

٤ – آلامُ الشَّيْخ

وَهٰكذا قَضَى الشَّيْخُ لَيْلَةً مُروِّعةً ، وهُو هائمٌ على وَجْهِهِ ، كأَنَّهُ نِصْفُ مَجْنُونٍ ، مِمَّا لحقهُ مِنَ الآلامِ المُبَرِّحَةِ (المُضْنِيَةِ) ، والأَحْداثِ الهائلَةِ .

وَلقدْ بَذَلَ وَزِيرُهُ المُخْلِصُ « كَنْت » كُلَّ ما فِي وُسْعِهِ ، لِلتَرْفيه (للتَّخفيف) عنْ مليكهِ ، وتَهْوِينِ مُصابِهِ عَلَيْه ، ما وَسِعَتْهُ حِيلَتُهُ . وافْتَنَّ « البُهلولُ » فى ضربِ الأَمْثالِ ؛ لِيُذْهِلَهُ عن نَكْبَتِهِ ، وَيُنقذَهُ مِن هَوْلِ الجُنونِ الَّذِى أَوْشَكَ أن يَحُلَّ بِهِ ، كما توسَّلَ إليهِ أنْ يَقْبَلَ رَجاءهُ ، فَيأْوِىَ معهُ إلى خُصٍّ (بَيْتٍ مِنَ الشَّجَرِ) قَرِيبٍ ، حتَّى تنتهِىَ تِلْكَ العَواصِفُ الهُوجُ (الثَّائِرةُ) .

وما زالَ بهِ حتى أَطاعَهُ ، وسارَ مَعَهُ مُيَمِّمًا (قاصدًا) ذٰلِكَ الكُوخَ ، وَهُوَ يُناجِى نَفْسَه مَحْزونًا : « أَفِى هٰذِهِ اللَّيْلَةِ تطرُدُنى بنتاىَ ؟ أَفِى هٰذِهِ اللَّيْلَةِ تُغَلَّقُ دُونى أَبوابُهُما ؟

واهٍ مِنْكِ يا « رِيجانُ » ، وتَبًّا (هَلاكا) لَكِ يا « جُنْرِيلُ » !

أَهٰكذا تجْزِيانِ بالْجُحودِ أباكما الشَّفيقَ ، الَّذى وهَبَكما كلَّ ما ملك ؟ إنَّ عاصِفَةَ الْجَوِّ — على قَسْوتِها — لأَهْوَنُ مِن هٰذهِ العاصِفَةِ الَّتى أَثَرْتُماها فى نَفْسِ أبيكُما ، بِما أَسْلَفْتُما (قَدَّمْتُما) إليه من جُحودٍ وعُقُوقٍ ! »

ولَمَّا دَنَوْا مِنَ الْخُصِّ ، قالَ المَلكُ « لِير » :

« إنَّ أحْقَرَ الأشْياء لَيُصْبحُ عَظِيمَ القَدْرِ ، جَلِيلَ الْخطَرِ ، مَتَى اشْتَدَّتْ إليْهِ الْحاجَةُ . فلا عَجَبَ إذا عَدَدْنا (قَدَّرْنا) الظَّفَر بهٰذا الْخُصِّ غُنْمًا كبيرًا ، فِى هٰذه اللَّيْلَةِ الهائلَةِ ! »

٥ — أُنشُودَةُ « البُهْلول »

واسْتَمعَ الْمَلِكُ « لِير » إلى صَوْتِ مُغَنٍّ يَقْتَرِبُ منهُ ؛ فالْتفَتَ ، فَإِذا بِهِ « البُهلولُ » ، يتظاهَرُ بالسُّرُورِ ، وَيَتكلّفُ المَرَحَ (شِدَّةَ الفرح) ، وَيلْتفِتُ إلى مَوْلاهُ مُنشِدًا :

« قَسَمْتَ — بِالأَمْسِ — مُلكًا يا « لِيرُ » ، أَظْلَمَ قِسْمَهْ !
أَقْصَيْتَ كلَّ عَلِيمٍ جَهلًا ، وأَنكَرْتَ عِلْمَهْ
وَرُحْتَ تُدْنِى لَئِيمًا بِالْمَدحِ يَسْتُرُ لُؤْمَهْ

يا مُطْفِئَ النُّورِ : مَهْــلًا ، شَرَيْتَ بالنُّورِ ظُلْمَـهْ ! »

فقالَ الشَّيْخُ مذهوشًا :

« نَعَمْ : لَقَدْ أَقْصَيْتُ (أَبْعَدْتُ) الْعَلِيمَ ، وأَدْنَيْتُ (قَرَّبْتُ) اللَّئيمَ . لَقَدْ أحْسَنْتَ التَّعبيرَ عمَّا كُنْتُ أُفَكِّرُ فيهِ الآن ، وصدَقْتَ في إِظْهارِ ما ناجَيْتُ بهِ نفسى (ما حَدَّثْتُها سِرًّا) في هٰذِهِ اللَّحْظَةِ . فما أبْرَعَكَ باكِيًا ومُغنِّيًا ، وما أظْرفَكَ جادًّا وهازِلًا ! »

فَقالَ « البُهْلُولُ » : « إنِّني أَكثرُ الناسِ حِفْظًا لِعَهْدِكَ ، وَأَخْلَصُ الأَصْدِقاءِ لَكَ . وَإِنِّى ذُو عَزْمٍ قَوِىٍّ ، وَهِمَّةٍ عَظِيمَةٍ ، وَرَأْيٍ صائِبٍ . وَلَوْ تَرَكْتَنِي أَحْكُمُ وأُبْرِمُ (أَجْعَلُ حُكْمِي نافِذًا) ، لَقَسَمْتُ مُلْكَكَ قِسْمَةً عادِلَةً حَكِيمَةً . »

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ « البُهْلُولُ » غِناءَهُ مُنْشِدًا :

« بُهلولُ » : مَجْنونُ « لِيرٍ » أَبَرُّ عَهْــدًا وَذِمَّهْ
أوْفَى الأخِــلَّاءِ قَلْبًا وأصْدَقُ الصَّحْبِ عَزْمَهْ
وَأَحْسنُ القــوْمِ رَأْيًا وأبعدُ النَّــاسِ هِمَّهْ
لَوْ كانَ مَجْنونُ « لِيرٍ » يَقْضِى ، ويُبْرِمُ حُكْمَهْ
لَكانَ أَعْــدَلَ قِسْمَهْ مِنــهُ ، وَأَوْفَرَ حِكْمَهْ .

٦ - شيْطان الغابة

وَلَمّا بلغَ الملكُ وَرَفيقاهُ ذٰلِكَ الْخُصَّ، أَسْرَعَ « البُهلُولُ » إلى دُخولِهِ لِيرْتادَهُ (لِيَتَعرَّفَهُ ويَخْتَبِرَهُ) لصاحِبَيْهِ . وما كادَ يَفْعَلُ حَتّى عادَ إليْهما مُسرعًا ، وهوَ يقولُ :

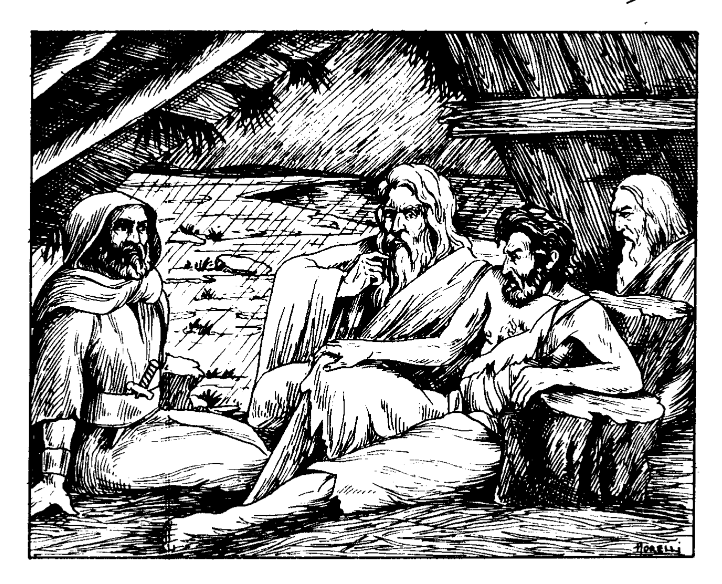
« حَذارِ أيُّها الرَّفيقانِ ، فَقَدْ رأيتُ فى ذٰلِكُما الْخُصِّ شَيطانًا مَريدًا (عَنِيدًا قاسيًا) . وهوَ يَزْعُمُ أَنَّ اسْمَهُ « تُوم » ، ويُلَقِّبُ نَفْسَهُ بالْمِسْكينِ . ولَقَدْ رَأَيْتُ عليهِ سِمَةَ الْخَبالِ (عَلامةَ الْجُنُونِ) ؛ فهُوَ مَخْبولٌ إنْ كانَ إنْسِيًّا (مِن النّاس) ، وإذا صَدَق حَدْسِى (تَخْمينى) ، وصَحَّ ظَنِّى ، فما هُوَ إلّا شَيطانُ هٰذِهِ الغابة . »

فلما خَرجَ منَ الْخُصِّ ذٰلكَ الشَّيْطانُ المِسْكينُ ، وَجَدُوهُ أشْعَثَ أغْبرَ (مُتَلَبِّدَ الشَّعَرِ ، لَوْنُه كَلَوْنِ الغُبار) ، عارِىَ الْجِسْمِ إلّا من أَسْمالٍ باليَةٍ (أثْوابٍ مُهَلْهَلَةٍ قَديمَةٍ) ، تَلُوحُ عَلَيْهِ أماراتُ الْبُؤْسِ . فصاحَ بِهِ الْمَلِكُ « لِير » : « ماذا بِكَ ، أيُّها الشَّقِىُّ المِسكينُ ؟ هلْ طَرَدَتْكَ ابْنَتاكَ من بيتِكَ ، بَعْدَ أنْ أوْرَثْتَهما إيَّاه ؟ »

فأجابَ الرَّجُلُ مُتبالِهًا ، مُتَغابِيًا : « أنا : تُوم الْمِسْكينُ . فَهَلُمُّوا إلى بَيْتى ، أيُّها الرِّفاقُ . »

٧ – الأميرُ الوَفِيُّ

وما اسْتَقَرَّ بهمُ الْمُقامُ ، حتّى رَأَوْا شَيْخًا يَجُوسُ خِلالَ الْغابةِ (يَمُرُّ فِي طُرُقاتِها) ، وَفى يَدِهِ مِشْعَلٌ يُنيرُ له طَريقَهُ فى الظَّلامِ الْحالِك .



وما تَبَيَّنَ الْوَزيرُ « كَنْت » ذلكَ الشيْخَ الْقادِمَ ، حتَّى عَرَفَ أنَّهُ الأميرُ « جُلُسْتَر » . فَسَأله عنْ سبَبِ مَقْدَمِهِ فى تِلْكَ اللَّيلَةِ الْهائِلَةِ .

فقالَ لهُ : « لَقَدْ طالَ بحْثِي عنِ الْمَلِكِ « لِير » ؛ لآوِيَهُ (أُضِيفَهُ) فى بيْتٍ قَرِيبٍ منْ قَصْرِى ؛ حتَّى لا يهْتَدِىَ إليهِ أعْداؤُهُ الَّذِينَ يتربَّصُونَ بهِ (يَنْتَظِرُونَ لَهُ الشرَّ) . وَإنِّى ليَحْزُنُنِى ما أَراهُ عليهِ من أماراتِ الْخَبالِ (عَلاماتِ ضعفِ الْعَقْلِ) . »

فقالَ له « كِنْت » : « لقد أصْبَحَ الشَّيخُ أقربَ إنْسانٍ إلى الْجُنونِ . »

فقالَ الأميرُ : « إنّ نِصْفَ ما حَلَّ بهِ مِنَ الأحْداثِ (الْمَصائبِ) لَيُسْلِمُ الْعاقِلَ إلى الْجُنُون . »

٨ — فِى بَيْتِ الأَمِيرِ

وَبَعْدَ حِوارٍ (حَديثٍ) طَوِيلٍ ، ذهَبَ الْجَميعُ إلى الْبَيْتِ الرِّيفِىِّ الَّذى أعدَّهُ الأميرُ لِسُكْناهُمْ قَرِيبًا مِنْ قَصرِه . ثمّ ترَكهمْ مُستأذِنًا عَلَى أَنْ يعودَ إليهمْ بعدَ قَليلٍ . وجَلس « لِير » مَعَ أصحابهِ ، وقدْ عاد إليهِ خَبالُهُ وَهَذَيانُهُ ؛ فتمثَّلَ نفسَه قاضِيًا يُحاكِمُ بِنتَيْهِ ، وَيَجْزِيهما بِما أَسْلَفَتاهُ (قَدَّمَتاهُ) إليهِ مِنْ إساءَةٍ وَعُقوقٍ .

وما زالَ يَهْذِى حتَّى خارَتْ قُواهُ ، وَزايَلَهُ رُشْدُهُ (فارَقَهُ هُداهُ) ، وأسْلَمَهُ الضَّنَى (سُوءُ الْحالِ) والضَّعفُ إلى نَوْمٍ عَمِيقٍ .

١ — الأَمِيرُ « جُلُسْتَر »

أيُّها القارئُ العزيزُ :

لا شَكَّ فى أنَّكَ تُحِبُّ أنْ تَعرِفَ مَنْ هو الأميرُ « جُلسْتَر » الَّذى عُنِيَ (اهْتَمَّ) بالمَلِكِ « لِير » ، وبذَل له كلَّ ما فى قُدرتِه مِن رِعايَةٍ وإكرام . وإنِّى لَمُحَدِّثُكَ ببعضِ حديثِه المُحزِنِ ؛ لتتَعرَّفَ مكانَهُ من شُخُوصِ هٰذه القِصَّةِ الخالدةِ .

كان الأميرُ « جُلسْتَر » شديدَ الوَفاء لمَليكِه « لير » . وقد حَزِن لِما أصابه من نكَباتٍ وأحْداثٍ ، وبكَى لِعَثْرَتِهِ (لِسَقْطَتِهِ) . ولم يكنْ يَعدِلُهُ (يُساوِيهِ) — فى إخلاصِه وَوَفائِهِ له — غيرُ « كنت » : الوزيرِ ، و« كُرْدِلْيا » : صُغْرَى بناتِ المَلكِ « لير » .

٢ — وَلدا الأَميرِ

وكان لِهٰذا الأميرِ المُخلِص الوَفِيِّ ولَدانِ ، اسْمُ أحَدهما : « إِدْجار » واسْمُ الثانى : « إدْمُنْد » . فأمَّا الأوَّلُ فكانَ مثالَ الوَفاء ، وأمَّا أخوهُ

فكان مثالَ العُقُوقِ . ولم يَكنِ الثَّانى — عَلَى الحقيقةِ — وَلَدَ الأَمير « جلُسْتَر » ؛ ولكنَّهُ كانَ مُنْتَسِبًا إليهِ ؛ لِأَنهُ تَبَنَّاهُ (اتَّخَذَهُ ابْنًا) — مُنْذُ نَشاءَتِهِ — وجَعلهُ صِنْوًا (أخًا) لِابنهِ « إدْجار » ، وبذَلَ له كلَّ ما يَمْلِكُ من رِعايةٍ وتهذيبٍ .

فلما كبِرَ « إدْمُندُ » نَسِىَ كلَّ ما حَباهُ به الأَميرُ « جلُسْتَر » (ما أعطاهُ إيَّاهُ) . ولم يكنْ له غَرَضٌ يَسعَى إلى تَحْقيقهِ ، غيرُ الوِشايةِ (السَّعىِ بالسُّوء) بأخيهِ ، وإيغارِ صَدْرِ أبيهِ (إشْعالِهِ غَيْظًا) عَلَيْهِ ؛ لِيسْتَأْثِرَ وحْدَهُ بِكلِّ شىْءٍ .

٣ — فِرارُ « إدْجارَ »

ودَبَّرَ ذلك الولدُ الغادرُ : « إدْمُنْد » مُؤَامَرَةً خَسِيسةً لإقصاء صاحبهِ (إبعادِهِ) عن أبيهِ ؛ فأَوْهَمَ الأَميرَ أنَّ ولَدَهُ « إدجار » يَأْتَمِرُ بهِ (يُشاوِرُ نَفْسَهُ فِيهِ) ، ليقْتُلَهُ طَمَعًا فى ثَرْوتِهِ العظيمةِ ، ومَنصِبهِ الْخَطيرِ . وما زالَ يُغرِيهِ (يُطْمِعُهُ) ويُؤَلِّبُهُ (يُثيرُهُ) ، حَتّى أَقنعهُ بِصِدقِ ما افتراهُ (ما اخْتَلَقَهُ) ، بَعْدَ أَن قرأَ عليه كِتابًا

زوَّرَهُ وعزاهُ (نَسَبهُ) إلَى أخيه . وقد أفلحَتْ مُؤَامرتُهُ — بَعْدَ قليلٍ — فهرَبَ أخُوه « إدجار » ، فرارًا من سُخْطِ أبيه الّذى توعّده بالقتل ، دونَ أن يعرفَ لِغضبهِ سببًا .

ومُنذُ ذٰلِكَ اليومِ ، تزَيَّا « إدجارُ » بزِيِّ الفقراء ، وتظاهَر بالْبَلَهِ والْجُنُون ، وغيَّرَ من هَيْئَته ، وأطلقَ على نَفْسِهِ اسمَ : « توم الِمسكِين » ، الّذى قال عَنْهُ « الْبُهْلُولُ » : « إنّه شَيْطانُ الغابةِ . » كما ذَكَرْتُهُ لك ، فيما قَصَصْتُهُ عليك من أنباء الفصلِ السّابِقِ .

٤ — مُستَشارُ المَمْلكَة

كان « إدْمُنْد » شَدِيدَ الطُّمُوحِ (عَظِيمَ الرّغْبَةِ فى الْعُلُوِّ) ، وكان يجْمَعُ — إلى دهائِهِ (مَكْرِه) وذَكائه — من خُبْثِ الطّبعِ ولؤْمِ النفسِ : مالا يَخْطُرُ لإِنْسانٍ عَلَى بالٍ . وقد ابتهَجَ لنَجاحِهِ فى مؤامرتهِ الْخَسيسةِ الّتى دبّرها لإِقصاء أخيه ، وأغراهُ (زَيَّنَ لَهُ) ذٰلك الفوزُ بِمُضاعفةِ هِمّتهِ ، لتحقيقِ غايتِهِ البعيدةِ ؛ وهى ارتقاءُ العرشِ والظّفَرُ (الْفَوْزُ) بالْمُلكِ . وقد استولتْ هٰذه الغايةُ عليه

وتَمَلّكتْ تفكيرَه ، وامتزَجتْ بِدَمِهِ ، وهيمنتْ (تَغَلّبَتْ) على نَفْسِه : فأصبح لا يُبالى اقترافَ الشُّنَعِ والآثام (ارْتِكابَ القبائحِ والْجَرائمِ) ، فى سَبِيلِ بُلُوغِ أُمْنِيّتِهِ .

ولم يَلْبَثْ أن أَصْبَحَ مُسْتَشارَ الْمملكةِ كلِّها ، ومَوْضِعَ ثِقَةِ الأُختيْنِ جميعًا . وَثَمّ بدأ يُوغِرُ صدرَ « جُنْرِيل » و« ريجان » على أبيهما . وما زالَ يَرْسُمُ لهما الْخُطّةَ لِلخَلاصِ منهُ ، ويُزيِّنُ لهما ذلك ، حتّى أقْصَتاه عنهما ، وَخَلا الْجَوُّ لذلك المُسْتَشارِ الماكِرِ الخبيثِ .

٥ – الجاسُوسُ

وَلَمْ يَقِفْ لُؤْمُ طَوِيّتهِ (خُبْثُ نِيّته) عندَ هٰذا الحدِّ ؛ فراحَ ينقلُ إلى بِنْتَيْ « لِيرَ » أخْبارَ الأميرِ « جُلُسْتَر » ، الّذى تَبَنّاهُ وتَعَهّدَهُ منذُ نَشاءَتِهِ ، وربّاهُ فى حداثتِهِ . ولم يَخْطُرْ ببالِ الأميرِ أنّ « إدْمُنْدَ » – أقربَ النّاسِ إليهِ ، وألْصَقَهم بِهِ – يَتَجَسسُ أخبارَه ، ويُحْصِى (يعُدُّ) عليه أعمالَهُ ، ليبلّغَها أعداءهُ .

وَقَدْ عَرَفَ « إدْمُنْدُ » – من مُحادثةِ الأميرِ – أنه يَعْتزِمُ العَوْدةَ

إلى المَلِكِ « لير » ؛ ليُبَصِّرَ رفيقَه « كَنت » بما يتهدَّدُ مَلِيكَهُ من أخطارٍ ، ويُوصِيَهُ بالذَّهابِ إلى « دُوفَرَ » ، حيثُ تُقيمُ « كُرْدِلْيا » : صُغرَى بناتِ « لير » ؛ ليُفْضِيَ إليْها (ليُخْبِرَها) بِما لَقِيَهُ أبُوها ، وبِما لا يزالُ يَلْقاهُ ، مِنْ أحداثٍ وخُطُوبٍ .

٦ – نصيحةُ الأمير

ولَمّا خَرَجَ الأميرُ « جُلُسْتَر » من قَصرِهِ ، عائدًا إلى « الدَّسْكَرَةِ » (القرْيَةِ) التى أوْدَعَ فيها « ليرَ » وَأصْحابَهُ ، أفْضَى إليهِمْ بما يُساوِرُهُ مِن قَلَقٍ عَلَى حَياةِ الملكِ . وألحَّ عَلَى الشّيخِ « لير » فى أنْ يُسافرَ إلى « دُوفر » ؛ حيثُ يَلْقَى – من رِعايةِ بِنْتِه البارَّةِ « كُردِلْيا » وعنايتها – ما هو خَليقٌ (جَديرٌ) بِهِ ، وزَوَّدَهُ بما يَحْتاجُ إليه منَ الْمالِ . وَقَدْ أدْرَكَ الْوَزِيرُ « كَنْتُ » ما يتَهدَّدُ « ليرَ » منَ الأخْطارِ ؛ فأسرَعَ إلى تنفيذِ ما أوْصاهُ بِهِ الأميرُ « جلُستر » قبلَ فَواتِ الفُرصةِ .

٧ – نَكْبَةُ الأمير

وما عادَ الأميرُ « جُلُسْتَر » إلى قَصْرِهِ ، حتَّى قَبَضَتْ عليه « رِيجانُ » وزوجُها و « جُنريلُ » أُخْتُها ، بعد أن عَرَفوا من « إِدْمُنْدَ » الْخَبيثِ ، كلَّ ما أَسْداهُ (قدَّمَه) الأميرُ إلى الْمَلِكِ « لير » مِنْ صَنِيعٍ مَشْكُورٍ .

واشْتَدَّ غَضَبُهمْ عَلَى الأمير الْكريمِ ؛ فأَوْثَقُوا كِتافَه ، وصَفَّدُوه (وضَعُوهُ فى القُيُودِ والأَغْلالِ) . وتَمادَوْا فى الإساءَةِ والتنكيلِ بِهِ (تعْذيبِه) وَشَتْمِه ، ثمَّ نَتَفُوا شَعَراتٍ من لِحْيَتِهِ . فلمَّا غضِب وثار لكرامتِه ، وذكَّرَهُمْ بما هوَ أهْلٌ لَهُ مِنَ الرِّعايَةِ ، زادَتْ نِقْمَتُهم عليه . فتقَدَّمَ إليهِ زَوْجُ « رِيجانَ » ، وأخرَجَ عينيه : واحِدَةً بَعْدَ أُخرَى ؛ فصرَخَ الأميرُ مُغَوِّثًا (مُسْتَغِيثًا) ، بَعْدَ أن عَمِيَتْ عَيناهُ . فَتحمَّس لنُصْرَته أحدُ خَدمِه ، وطَعَنَ الجانِيَ الأَثِيمَ طَعْنَـةً قاتِلَةً ، انتصارًا لِمَوْلاهُ ، وانتِقامًا لهُ مِمَّنْ أعماهُ . وقدْ لَقِيَ حَتْفَه (ماتَ) ذٰلك الخادمُ الشَّهْمُ فى سبيلِ الواجبِ النّبيل .

أمّا الأميرُ « جُلُسْتَر » ، فقد أَلقَوْا بهِ خارجَ القَصْرِ ، دُون أنْ تُدْرِكَهم شَفقةٌ بهِ ، ولا رحمةٌ عليهِ .

٨ — الزَّارِعُ والأمير

و يَمْشِي الأميرُ خُطواتٍ قليلةً على غَير هُدًى ، فيَلْقاهُ شيخٌ فى الثَّمانِينَ منْ عُمُرِهِ ؛ فيسأَلُهُ الشَّيخُ مَحْزونًا عمَّا حلَّ به منَ الأَحْداثِ . فيرْجُوهُ الأميرُ أن يبتَعِدَ عنهُ حَتَّى لا يُصيبَهُ منْ أجْلِهِ سُوءٌ ، فيقولُ له الشَّيخُ :

« أحْبِبْ بكلِّ ما أَلقاهُ مِنْ أذًى وضُرٍّ فى سبيلِك ؛ فقدْ نَشَأْتُ فى نِعْمَتِكَ ، وعِشْتُ من غَلَّةِ الأرضِ الَّتى اسْتَأْجَرْتُها منك ومنْ أبيكَ . ولنْ أترُكَكَ وَحيدًا ، بعدَ أن فقدْتَ نُورَ عَينيكَ ، وعَجَزْتَ عن تَعَرُّفِ الطَّريقِ . »

فقالَ لهُ « جلُسْتَر » : « لقدْ تعثَّرْتُ فى طريقى حينَ كنْتُ أُبصِرُ ، وأخْطأْتُ فى الحُكم عَلَى ما رَأَيتُ ، ولَمْ تَعْصِمْنِى (لَمْ تَحْفَظْنِى) عيْناىَ مِنَ الْخَطإِ . فلعلِّى أعُودُ إلى الصَّوابِ وأنا أعْمَى ، فلا أتسرَّعَ فى الحُكم عَلَى ما يُحِيطُ بى من الأشْياء .

٩ – الأميرُ والمَجْنونُ

ولَقِيَهُما في طريقهما « تُوم الْمِسْكينُ » ، وهُو يتظاهَرُ بالْجُنونِ كَعادتِهِ . ولعلّكَ الآنَ قد عَرَفْتَهُ ، بعدَ أنْ أَسْلَفْتُ لكَ القوْلَ : إنَّه « إدجارُ » ولَدُ الأمير ، الَّذِي وَشَى به أَخُوهُ « إدْمُنْد » .

ورَأَى الوَلَدُ البَرُّ الْوَفِيُّ ما أصابَ والدَهُ منَ النَّـكَبات ؛ ففاضَ قلبُهُ لَوْعَةً (حُرْقَةً) وحُزنًا . ولٰـكِنَّهُ آثَرَ (فَضَّل) التجَلُّدَ والصَّبْرَ ؛ حتَّى لا يَفْطُنَ أبوهُ إلى حقيقـةِ أَمْرِه فتنكَشِفَ حيلتُه .

وقدْ ألحَّ الأميرُ عَلَى الشَّيخِ الزَّارعِ أن يُسْلِمَهُ إلى ذٰلكَ الْمِسكينِ . فقال له الشَّيْخُ : « وكيف أُسْلِمُكَ إلى مَجْنونٍ ؟ »

فأَجابهُ الأميرُ : « لقدْ أَصْبَحَ مَنْ كُنَّا نَحْسَبُهُم عُقَلاءَ ، خادِعِينَ مُضَلِّلِينَ في هٰـذهِ الأَيَّامِ السُّودِ . ولعلّي أَجِدُ في هَدْيِ (فِي رَأْيِ) من نَحْسَبُهُمْ مَجانِـينَ : خَيْرًا مما وَجَدْتُهُ في هَدْيِ أُولئِكَ الْمُتَظاهِرِين بالتَّعَقُّلِ والْحِكْمَةِ . فإذا شِئْتَ أن تُسْدِيَ إلَيَّ جميلًا (تَصْنَعَ مَعِي مَعروفًا) ، فأَحْضِرْ ثِيابًا لِتكْسُوَ بها ذٰلِكَ العارِيَ الْمِسكينَ . »

فقالَ له الزّارِعُ : « سأُحْضِرُ لهُ خَيرَ ما عِندى منَ الثِّيابِ . »

١٠ – حِوارُ الأَميرِ ووَلَدِه

وسارَ الأَميرُ معَ ولَدِه « إدْجارَ » ، الّذى كانَ لا يَزالُ يَتظاهَرُ أَمامَ أبيهِ بأَنَّهُ مَجْنونٌ، حتَّى لا يَفْطُنَ إلى حَقيقَتِه .

وسأَلهُ الأَميرُ : « أتَعْرِفُ الطريقَ – يا فَتَى – إلى « دُوفر » ؟ »

فقالَ لهُ: « أعْرِفُ كلَّ خافِيَةٍ منْ خَوافِيها ، ولا أَجْهلُ شَيئًا مِن مَعالِمِها ومَجاهِلِها . »

فقالَ لهُ: « برَبِّكَ : سِرْ مَعى حتَّى تَبْلُغَ بِىَ الصَّخْرَةَ العاليةَ الّتى تُشرِفُ (تُطِلُّ) عَلَى البَحْرِ من قِمَّةِ الْجَبلِ ؛ لِأُلْقِىَ بنفسِى مِنْ ذٰلكَ العُلوِّ الشّاهِقِ؛ فَأَتَخلَّصَ ممَّا أُكابِدُهُ منَ الآلامِ المُبَرِّحةِ (المُوجِعَةِ) . وخُذْ هٰذا الكيسَ بما فيه منْ مالٍ ، مُكافأَةً لكَ على ذٰلكَ . »

فتظاهرَ ولدُهُ بِطاعتهِ ، وما زالَ يَمشِى معهُ حتَّى بَلَغَ بهِ صَخْرَةً قليلةَ الإرْتفاعِ فى سفحِ الجَبلِ . فقالَ لهُ : « ما أبْعدَ هٰذهِ القِمَّةَ الشّاهِقَةَ عنْ سَطحِ البَحْرِ ! إنِّى لَأَرَى أحدَ الصَّيّادِينَ وهوَ

واقفٌ على الشَّاطِئِ ؛ فيُخَيَّلُ إِلَيَّ — منْ فَرْطِ العُلُوِّ — أَنَّهُ فَأْرَةٌ صَغيرةٌ ، وأرَى الْمَرَاكِبَ الكَبِيرَةَ ؛ فلا أَكادُ أَتبيَّنُ رَسْمَها ، لفَرْطِ



ضآلَتِها (شِدَّةِ صِغَرِها) ، وحَقارةِ أَحْجامِها ! هَلُمَّ — يا سَيِّدِى — فاقْفِزْ كما تُرِيدُ ! »

ولقَدْ خُيِّلَ إلى الأَميرِ أَنَّ مُحَدِّثَه صادِقٌ فيما يقُولُ ؛ فقفزَ مِنَ الصَّخْرةِ إلى سَفحِ الجبلِ ، دونَ أنْ يُصيبَهُ سُوءٌ .

وأقْبَلَ ولدُه « إدْجارُ » ، وقدْ غيَّرَ مِنْ صَوْتِهِ ، مُتظاهِرًا بأَنَّهُ شَخْصٌ آخَرُ ؛ فقال لهُ : « كَيف هوَيْتَ – يا عَمٍّ – من ذٰلكَ الارْتفاعِ الشَّاهقِ ، دونَ أنْ يُدَقَّ عُنُقُكَ (تنكسِرَ رَقَبَتُكَ) ، وتُسْحَقَ عِظامُكَ ؟ »

فعَجِبَ الأَميرُ ممّا سَمِعَ ، وقالَ له : « مِنْ أيِّ ارْتفاعٍ هوَيْتُ (سَقَطتُ) ؟ » فأَجابهُ « إدْجارُ » مُتَظاهِرًا بالدَّهْشةِ والْعَجَبِ :

« أَلَا تعرفُ مَدَى الْهُوَّةِ السَّحيقَةِ (مقْدارَ الْحُفرةِ العميقَةِ) التى تَرَدَّيْتَ (سَقَطت) فيها ؟ لَقدْ رَأَيْتُك – مُنذُ لحْظةٍ يَسِيرةٍ – وأنتَ فى عالِيَةِ هٰذا الْجَبَلِ الشَّاهِق ، ومَعك مَخلوقٌ عَجيبٌ ، تَبدُو عيناهُ كأَنَّهُما – لشدَّةِ اتّساعِهما – قَمَرانِ مُسْتَديرانِ ، وقدْ خُيِّلَ إلَيَّ أنَّ لهُ أَلْفَ وَجْهٍ . وما أَشُكُّ فى أنَّهُ شَيْطانٌ مَرِيدٌ (خَبيثٌ) . فلْتَهْنَأْ بِنَجاتِك منهُ ، ولْتَفْرَحْ بما ظَفِرْتَ به مِن السَّلامة ؛ فما أَشُكُّ فى أنَّ العنايةَ الإلٰهيَّةَ تَصْحَبُك وتَحْرُسُكَ . » .

١١ – فى الْحُقُولِ

وإنَّهما لَيسيرانِ فى الْحقُولِ ، إذْ لَقِيَهُما الْملكُ « لِيرُ » ، وقدْ عَقَدَ

علَى رَأْسِهِ تاجًا مِن الأَزْهارِ الْبَرِّيَّةِ . فلمَّا حَيَّاهُ « إِدْجارُ » ، أَنشأَ « لِير » يَهْذِى ويُجَمْجِمُ أَلفاظًا لا مَعْنَى لها . فعرَفَهُ الأَميرُ « جُلسْتر » — حينَ سَمِعَ صَوْتَه — وسَأَلهُ قائلًا : « تُرَى مَنْ أَرَى ؟ أَلَسْتَ الْمَلِكَ « لِير » ؟ »



فأَجابه : « إِنَّ كلَّ جارِحَةٍ مِنْ جَوارِحى (كلَّ عُضْوٍ مِن أَعْضائى) ، وكُلَّ شَعَرَةٍ مِنْ شَعَراتِ جِسْمى ، لَتَنْطِقُ صارِخَةً مُحَدِّثَةً : أَنَّنى



الْملِكُ « لِير » . أمّا أنتَ ، فما أَظُنُّكَ إلّا بِنْتِي « جُنْرِيلَ » ، برغْمِ هٰذِهِ اللِّحْيَةِ الْبَيْضاء . »

ثُمَّ أسْتَوْلَى الْخَبالُ والْهَذَيانُ عليهِ مرَّةً أُخْرَى . فَحَزِنَ الأَميرُ لِما حَدَثَ ، وهانَ عَليهِ ما حَلَّ بهِ مِن أحْداثٍ وخُطوبٍ ، بعْدَ أن رأَى ما بلَغهُ الْملكُ « لير » من سُوء الْمَآلِ (الْعاقِبَةِ) .

١٢ — عَوْدَةُ الْمُخْلِصَة

هَدأَتِ الْعَواصفُ الثّائِرَةُ ، وسكَنَتِ الرُّعودُ الْمُدَوِّيةُ ، وتقَشَّعَت (زالَت) السُّحُبُ الْمُتلبِّدةُ ، وَظَهرتِ السَّماءُ صافيةً بعْدَ أنْ حَجبتْها الْغُيومُ . وعادَتِ الْبِنْتُ الوفِيَّةُ « كُرْدِلْيا » فى جيشِها الْعظِيمِ ، لِتُنقذَ أباها ممّا يُعانيهِ مِن الأَهْوالِ والكوارثِ . وكانتْ قدْ علِمَتْ مِن الْوَزيرِ الْمُخْلِصِ : « كَنْت » ، ما عاناهُ الشَّيخُ « لِير » من الْخُطوبِ والْمِحَنِ . فأَخبَرَتْ زَوْجَها : مَلِكَ « فرنسا » بتلكَ الْقِصّةِ الْمُفزِّعَةِ ؛ فلمْ يَترَدّدْ فى إعْدادِ جيشٍ كبيرٍ ، لتأْديبِ أُخْتَيْها الْغادِرتيْنِ ، والتَّنكيلِ بهما (جَعْلِهِما نَكالًا وعِبْرَةً) ؛ جَزاءَ ما أَسْلَفَتاهُ إلى أبيهما « لِير » ، مِن إساءَةٍ وجُحودٍ .

وما كان أسرعَ « كُرْدِلْيا » : صُغْرَى البْناتِ ، وأوْفاهُنَّ عَهْدًا ، وأكرَمَهُنَّ نفسًا ، إلى نَجْدةِ أبيها . فقدْ غادرَتْ « دوفَر » — مِن فَوْرِها — وما زالَتْ تَجِدُّ فى سَيْرِها ، حتَّى وصلَتْ إلى أبيها ، وهى أشوَقُ ما تكونُ إلى لقائه ، ولَثْمِ يدَيْهِ (تَقْبيلِهما) ، والِاعتذارِ له مِمَّا كابَدَه (قاساهُ) مِن عُقوقِ بنتَيْهِ ، وما لَقِيَهُ عَلى أيْدِيهِما من إذلالٍ وهَوانٍ .

١٣ — نَصِيحة الطَّبيب

وما وَصَلَتْ إليه ، حتَّى وَجَدَتْهُ مُستغرقًا فى سُباتٍ (نَوْمٍ) عميقٍ . فقالَ لها الطَّبيبُ : « أتأْمُرِينَ — يا مَوْلاتِى — أن أُنبِّهَهُ ؟ »

فقالت له : « ليس لِى أنْ آمُرَ بما ليسَ لِى بهِ عِلمٌ . فافعلْ ما يُوحِيه إليك طِبُّكَ ، ونفِّذْ ما تُشِيرُ به علَيْكَ خِبرَتُـكَ وتَجارِبُك . »

فقالَ الطَّبيبُ : « أرَى أن نُوقِظَهُ على عَزْفِ المُوسيقَى ، بعد أن نَكسُوَهُ حُلَّةً جديدةً (ثوْبًا لم يُلْبَسْ) . ومتَى استيقَظَ على الألْحانِ المُشْجِيَةِ (المُطْرِبَةِ) ، كُـنْتِ أوَّلَ مَنْ يراه ؛ فلا يَلبثُ أن يعودَ إليه

رُشْدُهُ الَّذى أوْشكَ أن يُفارِقَه . وإنَّ فى مُحادثَةِ جلالتِكِ إيَّاه ، لَدَواءٌ أَنجَعَ (أشْفَى) له من كلِّ دَواءٍ . »

١٤ – مُناجاةُ « كُرْدِلْيا »

فقالتْ « كُرْدِلْيا » : « اصْنَعْ – لِشِفائِهِ – ما تَشاءُ ، وابْذُلْ فِى سَبيلِ ذلِكَ ما تَسْتَطِيعُ ، بِلا إبْطاء . »

ولمَّا عَزَفَتِ الْمُوسيقَى ، دَبَّتِ الْيَقَظَةُ فِى نَفْسِ الْمَلِكِ شَيْئًا فَشَيْئًا ، حَتَّى أفاقَ مِمَّا غَشِيَه (مِمَّا أصابهُ) ، واسْتَيْقَظَ مِنْ سُباتِهِ العميق .

وكانَتْ « كرْدِلْيا » شدِيدَةَ اللَّوْعَةِ لِما أصابَ والِدَها الْكَرِيمَ مِنْ هَوْلِ تِلْكَ العاصِفَةِ الْهَوْجاءِ الَّتى أضْعفَتْ جسمَهُ ، وأرْهَقَتْ (أتْعَبَتْ) أعْصابَهُ ؛ فوَقَفَتْ تتأمَّلُ وَجْهَهُ الْحَزِينَ ، وتُناجِيهِ مُلْتاعةً (مُتأَلِّمَةً) ، وهِيَ تَقُولُ :

« أهٰكذا تَجْزِيكَ بالْعُقُوقِ والْغَدْرِ بِنْتاكَ ، جَزاءَ ما أسْلَفَتْ إلَيْهما بِالْخَيْرِ يَداك ؟ أهٰكَذا تَبْلُغُ قَسْوَةُ الْقَلْبِ مِنْهُما أن تُسْلِماكَ إلَى الرِّيحِ الْعاتِيَةِ ، والرُّعُودِ الْمُدَوِّيَةِ ؟ »

ثُمَّ أَنعمَتِ النَّظرَ فِي وجْهِ الشَّيْخِ ، وَقَدِ اشْتَدَّتْ لَوْعَتُها وحُزْنُها ، فقالَتْ : « كيفَ رَضِيتَا لِهٰذا الْوَجْهِ أنْ يَتَعرَّضَ لأَهْوالِ الْعَواصِفِ الْهُوجِ ، ولَيْس علَيهِ مِنْ غِطاءٍ يَقِيهِ غائِلَةَ الْبَرْدِ (شِدَّتَهُ) غَيْرُ تِلْكَ الشَّعَراتِ الْمُبْيَضَّةِ الرَّقيقَةِ ؟ شَدَّ ما كابَدْتَ – يا أَبَتِ – مِنَ الْهَوْلِ والضَّنَى (الْمَرضِ) . وشَدَّ ما أَسَأْتُما ، أَيَّتُها الشَّقِيقَتانِ !

أَمَا لوْ أنَّ لِي عدُوًّا لَدُودًا أغْرَى بإِيذائِى كلبًا ضارِيًا حقُودًا ، فَعَضَّنِى دُونَ أنْ أُسْلِفَ إليْهِ إساءةً ، ثُمَّ لَقِيتُ الْكلْبَ الشَّرِسَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ اللَّيْلاءِ (الشَّديدةِ الظُّلْمَةِ) ، وقَدْ نُبِذَ بالْعَراءِ (الأَرْضِ الْخالِيَةِ) ؛ لآوَيْتُهُ فِي بَيْتِي وَأَدْفَأْتُهُ ، مُتناسِيَةً كلَّ ما أَسْلَفَ إِلَيَّ مِنْ أذِيَّةٍ وَإِيلامٍ .

فَكَيْفَ بِمَنْ وَهَبَ لَكُما مُلْكَهُ الْعَظِيمَ ، وتَفَنَّنَ فى بِرِّكُما ، وَلَمْ يَدَّخِرْ أىَّ وسِيلَةٍ فى سَبِيلِ إِسْعادِكُما ! أَهٰكذا تَجْزِيانِه ؟

أَيْنَ أَلفاظُكُما الْعَذْبَةُ الْخادِعَةُ ، التى كُنْتُما تُمَلِّقانِه بها يَوْمَ دَعاكُما لاِقْتِسامِ مُلْكِهِ ؟

لَقَدْ تَمَثَّلْتُ (تَخَيَّلْتُ) مِنْ فُنُونِ غَدْرِكُما صُورًا وأَلْوانًا لاتُحْصَى ،

وَلٰكِنَّ ما تَكَشَّفَ لى مِنْ ضُرُوبِ الْقَسْوَةِ وفُنُونِ الطَّمَعِ - مِنْكُما - قَدْ فاقَ جَمِيعَ ما تَمَثَّلْتُهُ ، وَأرْبَى (زادَ) على كلِّ ما ذَهَبَ إلَيْهِ خَيالِى ، منْ أفانِينِ العُقُوقِ والإساءَةِ (أصنافِهما) . »

١٥ — يَقَظَةُ الشَّيْخِ

وأفاقَ الشَّيْخُ « لِير » مِنْ سُباتِهِ العميقِ ، فَأَقبلَتْ عليهِ بِنتهُ الْوَفِيَّةُ « كُرْدليا » تُحَيِّيهِ قائلَةً :

« كيفَ أصْبَحْتَ ، يا صاحبَ الْجلالةِ ؟ »

فَبَدَتِ الدَّهْشةُ على وَجْهِهِ ، وَلَمْ يَعْرِفْ : أفى حُلْمٍ هُوَ أَمْ فى يَقَظةٍ ، ثمَّ قال متحيِّرًا :

« لِماذا بعثتُمونِى مِنَ المَوْتِ ؟ ولماذا أخرَجْتُمونى من ظُلْمَةِ القَبْرِ ، بعد أنْ أراحَنى الموْتُ من كوارثِ الزَّمَنِ ومصائبِ الْحياةِ ؟ »

ثم نظرَ إلى « كُرْدِلْيا » مَذهولًا ، وقالَ : « وَأنتَ أَيُّها الرُّوحُ المَلائِكِيُّ الْحَنُونُ ، خبِّرْنِى : مِنْ أىِّ مكانٍ مِنْ عُلْيا السماواتِ نزَلْتَ ؟ وكيفَ حَلَلْتَ هٰذا الوادىَ ؟ ولِأىِّ غايةٍ جِئْتَ ؟ »

فقالتْ « كُرْدِلْيا » : « هَلْ عرَفْتَنى، يا مَوْلاىَ ؟ »

فَأَجابها : « أنتَ – بِلا شَكٍّ – أَكْرَمُ رُوحٍ مَلائِكِيٍّ رَأَيْتهُ فِي حَياتى . فَخَبِّرْنى بِرَبِّكَ – أيُّها الرُّوحُ الطَّاهِرُ – فى أىِّ وَقْتٍ حلّتْ بكَ الوفاةُ ؟ »

١٦ – حِوارُهُ مَعَ « كُرْدِلْيا »

فَلَمْ تَيْئَسْ « كُرْدِلْيا » مِنْ شِفائِهِ ، وَأَقْبَلَتْ عليهِ تُؤَسِّيهِ، وتُلاطِفُهُ ، وتَطْلُبُ إليهِ أنْ يُهَدِّئَ مِنْ سَوْرَةِ نفسِه الْمَحْزُونةِ . فقالَ مدهوشًا :

« حَسْبُكَ أَيُّها الرُّوحُ الْملائِكيُّ، حَسْبُكَ (كَفاكَ) ! فَما أَدرى – مِمَّا يُحِيطُ بِى مِنْ هٰذِهِ الأشْياء – شيئًا ، وما أَعْرِفُ أىَّ ثوْب هٰذا الّذِى أرْتديهِ ؟ ولا أدرى مَن الّذى أَلْبَسَنِيهِ ؟ وَلَوْ سأَلْتُمُونى – فى هٰذه اللَّحْظَةِ – فى أىِّ مكانٍ أنا ؟ لَما عَرَفْتُ لِسوًّالِكُمْ جوابًا . صَدِّقْ – أيُّها الرُّوحُ الْكريمُ – أنّنى لا أعرِفُ كيفَ قضَيْتُ يومَ أمسِ ؟ ولا أَدرى أَنائمٌ أنا ، أَم يَقْظانُ ؟ ثم لا أَدرى أَحَىٌّ أَنا ،

أَمْ مَيِّتٌ؟ وَلوْ طاوَعْتُ نفسى ، وَأفْضيتُ بما أُضْمِرُهُ ، لَحسبتُمونى مَخْبُولًا أو مَعْتُوهًا ! إننى لأتَمَثَّلُ فى هٰـذا الرُّوحِ الْملائِكِيِّ صورَةَ بِنْتِي الوفيَّةِ « كُرْدِلْيا » . فلا يَسْخَرَنَّ مِن هٰذا الوَهْمِ أحدٌ ؛ فَإِنَّنى أعتقِدُ أنَّنى لا أزالُ عَلَى قَيْدِ الحياةِ ، كما أَعتقِد أَنَّ هٰذا الرُّوحَ الْماثِلَ أَمامِى هوَ « كرْدِلْيا » بِنْتى . »

فقالت « كُرْدِليا » باكيةً :

« ما أَصدَقَ فِراسَتَكَ (إصابةَ ظَنِّكَ) ، وَأَصَحَّ رَأْيَكَ ، أَيُّها الوالدُ الكريم ! »

فقال لها مُتَأَلِّمًا : « لِماذا تَبكِينَ ، أَيَّتُها البارَّةُ الْمُحْسِنة ؟ أَأَنتِ تَحْزَنِينَ لِما أَصابنى ، بعدَ أَن أَسْلَفْتُ إليكِ من الإساءَةِ ما أَسلفْتُ ؟ أَكذٰلكِ تَجْزِيننى إحسانًا بإساءَةٍ ، عَلَى حِينِ قَدْ جزَتْنى أُخْتاكِ إساءَةً بِإحسانٍ ؟ أَمَا لَوْ أَنَّكِ أَنكرْتِنِي — كما أَنكرَتْنى أُختاكِ — لَكُنتِ فى سَعَةٍ منَ العُذْرِ » فقالتْ له :

« بِرَبِّكَ لا تَسْتسلِمْ لِأَحْزانِكَ — يا أَبَتِ — فإِنَّ ذٰلك يَملأُ نفسِى هَمًّا ولَوْعَةً . هَلمَّ يا أَبَتِ ، فلن تَرَى إلَّا ما يَسُرُّكَ . »

١٧ — اعتِذارُ النّادم

فقالَ لَها : « لقد أسأْتُ إليكِ أبْلَغَ إساءَةٍ ، وما أَجْدَرَنى أن أطلُبَ إلَيْكِ الصَّفْحَ والغُفرانَ (الْمُسامَحةَ والْمَغْفِرَةَ) . فتجاوَزى (اصْفَحِى) — أيَّتُها الكريمةُ — عمَّا قَدَّمَتْ يَدایَ . »

فقالت له : « إنَّنى بِنْتُكَ المُؤْتَمِرَةُ بأمْرِكَ ، المُلَبِّيَةُ لإشارَتِكَ ، فلا يَحْزُنْكَ شىءٌ بعد اليَوْمِ . أمَّا أنا فلستُ إلَّا خادِمَةً وَفِيَّةً لكَ مَدَى الحياةِ . »

وَثَمَّ أدْرَكَ الملِكُ « لِير » — تَئِيشًا (بَعْدَ فَواتِ الوقْتِ) — مِقدارَ وَفاءِ بِنْتِهِ « كُرْدِلْيا » ، وَعَرَفَ مَدَى خَطَئِهِ حين صَدَّقَ ما كانتْ تُزَوِّرُه بِنْتاهُ ، مِنْ كاذِبِ اللَّفظِ ، وخاتِلِ الثَّناءِ (خادِعِ الْمَدْحِ) .

١ - هزيمَة « كُردليا »

ما كان لِيدورَ بِخَلَدِ الْمَلك « لِير » — حين أصغى إلى تَمْليق بِنْتَيهِ الْخادِعتيْنِ ، وعَقَّ نصيحةَ وزيرِه المخلصِ « كَنْت » — أنَّ أحْداثَ الدَّهرِ ومصائبَهُ ستجتمعُ متواليةً ، متألِّبةً عليه ، للتنكيلِ به ، مسرِفةً في معاقَبَتِه على خَطئِهِ ؛ فلا تَلُوحُ بارِقةٌ (نُورٌ) من الأمَلِ ، حتَّى يعقبَها ليلٌ داجٍ (شَديدُ السَّوادِ) ، منَ الْيأْس المُميتِ !

لَقَدِ الْتقَى الْجَيشانِ ، وكان الأملُ معقودًا عَلَى نُصْرَةِ « كُرْدِلْيا » ، وَهزيمَةِ جيشِ أُخْتَيْها الْغادِرَتيْنِ ، واندِحارِهِ (انكسارِهِ) . ولٰكنَّ سُوءَ حَظِّ الشَّيخِ « لِير » قَدْ خَيَّبَ هٰذا الأملَ الْباسِمَ الْمُشْرِقَ ؛ فانهزَمَ جيشُ « كرْدليا » أشنعَ هزيمَةٍ ، وانتصَر عليه جيشُ « جُنْرِيلَ » وَ « رِيجان » ، وانتَهَتِ المَعْرَكةُ بِأَسْرِ « كرْدِلْيا » وأبيها ، وإيداعهِما السِّجنَ بعد أن غُلِبَ جيشُهما عَلى أمْرِهِ .

٢ — الْخُبثاءُ الثَّلاثة

تَمّ الْفَوْزُ لِلخبثاء الثّـلاثة ، أَعْنِي : « جُنريل » وَ « ريجان » وَمستشارَهما « إدْمُنْد » ، الَّذِي قادَ الْجَيْشَ ، وَأحْرزَ النصرَ ؛ فكان ذٰلك الفوْزُ شرًّا — على أولٰئك الغـادرِينَ — من كلّ هزيمةٍ . وستَرَى — أيُّها القارئُ العزيزُ — فيما بَقِيَ من حَوادثِ القصَّةِ الْمُحْزِنةِ وأنبائها الرّاعِبَةِ (الْمُخِيفَةِ) ، مِصْداقَ ما حدَّثْتُك به (بُرْهانَ صِدْقهِ) !

٣ — بين « ألبَانى » و « إدْمند »

لقـد حَسِبَ « إدْمُنْدُ » — حِينَ تَمَّ له الفوْزُ فى تِلكَ الْمعركةِ الحاسِمَةِ (القاطِعَةِ) — أنّهُ قد أدركَ أَرَبَهُ (مَطْمَعهُ) ، وظَفِرَ بأُمْنِيَّتِهِ فى ارتقاء عرْشِ المملكةِ ، بعـد أن خَلا الْجَوُّ من كلّ مُنافسٍ له فى المُلكِ ، ولم يبقَ أمامَهُ أحَدٌ يَخْشَى بأسَه غيرُ الأميرِ « أَلْبانِى » زَوْجِ « جُنْرِيلَ » .

وكان ذٰلِكَ الأميرُ طيِّبَ القَلبِ ؛ فلم يَرْضَ عن شَيْءٍ مِمَّا اقترَفهُ

(ٱرْتَكَبهُ) الْخُبثاءُ الثَّلاثَةُ من الأوْزارِ والآثامِ (الذُّنوبِ والْجَرائِمِ) .

وأَصرَّ الأميرُ « أَلْبانِى » عَلَى إطلاقِ سَراحِ « كُرْدِلْيا » وأبيها من إسارِهما ، كما أصرَّ « إدْمُنْدُ » على حَبْسِهما . ودارتْ مُناقشةٌ عنيفةٌ بينهما ، وانتصرتِ الأُختانِ لِمُستشارِهما الْخَبيثِ . وغَضِبَ الأميرُ « أَلْبانِى » ؛ فدَعاهُ لِلْمُبارَزةِ (الْمُضارَبةِ بالسَّيْفِ) .

٤ — بيْنَ « إدْمُنْدَ » و « إدْجارَ »

وجاء — فى هٰذهِ اللَّحظَةِ — « إدْجارُ » : ابْنُ الأميرِ « جلُسْتَر » ؛ فدَعا أخاهُ « إدْمُنْد » إلى نِزالِه (مُبارزتِه) قائِلًا :

« هَلُمَّ أيُّها القائدُ العَظِيمُ ، فامْتَشِقْ حُسامَكَ (اشْهَرْ سَيْفَك) ، واكْتُبْ آخرَ صَفْحَةٍ فى تاريخِ حَياتِكَ المَمْلُوءةِ بالشُّرورِ والأَرْجاسِ (الْخَطايا) والدَّنايا . هَلُمَّ فانتَقِمْ لِشَرَفِكَ مِمَّنْ يَرْميكَ بِكُلِّ مُخْزِيَةٍ ، وَيَتَّهِمُكَ بكلِّ نَقيصَةٍ . هَلُمَّ إلىَّ : فَرَوِّ (اسْقِ) رُمْحَكَ منْ دَمِى إنِ اسْتَطعْتَ ، لَعَلَّكَ تَغْسِلُ ما لَحِقَكَ منَ الإهانَةِ الَّتى لَوَّثَتْ بها شَرَفَكَ الرَّفيعَ . فإنْ عَجَزْتَ عن ذٰلِكَ ، فَلَنْ يُعْجِزَنى قَتْلُكَ ! »

فصاحَ فيـهِ « إدمُنْدُ » : « إنَّما جاءَ بكَ إلَيَّ حَيْنُكَ (انْقِضاءُ أجَلِكَ) . ولئِن جَهِلْتُ مَن أنتَ ، لقَدْ عَلِمْتُ أنَّكَ رجُلٌ ساقَتْهُ حَماقَتُهُ إلى الرَّدَى ، وأسْلَمَهُ أجَلُهُ إلى الْهَلاكِ . وإنَّ سَيْفِي هٰذا لَكَفيلٌ بتَأْديبِ أَمْثالِكَ ، والتَّنْـكيلِ بك ، وجَعْلِكَ عِبْرَةً لِكُلِّ مَن يَعْتَبِرُ . »

وَما أَتَمَّ وعِيدَهُ حتَّى بَدَأَ هُجُومَهُ عَلَى مُنازِلِهِ (خَصْمِهِ) ، ودارَتْ رَحَى الْقِتالِ بيْنَهُما ، وأشْتدَّ صِراعُهُما ، وسُرْعانَ ما عاجلَه « إدْجارُ » بطَعْنَةٍ قاتلَةٍ ؛ فهَوَى « إدْمُنْـدُ » إلى الأَرْضِ مُجَدَّلًا (صَريعًا) ، يتَعَثَّرُ (يتَخَبَّطُ) في دَمِهِ . وأسْتَوْلَى الدَّهَشُ عَلَى الْحاضِرِينَ ، وعَقَدَ الذُّهولُ أَلْسِنَتَهُم ؛ فلَمْ يَدْرُوا ما يَفْعَلونَ .

٥ — مَصارِعُ الْخُبَثاء الثَّلاثَة

ولمَّا سَقَطَ « إدْمُنْدُ » ، صاحَتْ « رِيجانُ » مُفـزَّعةً ، تتَلوَّى مِن فَرْطِ الأَلَمِ ، ثمَّ أُغْمِيَ عَليْها ؛ فوَقعَتْ — مِن فَوْرِها — جُثَّةً هامِدَةً .

أتَدْرِى – أيُّها القارِئُ العزيزُ – بأَىِّ شَىْءٍ قُتِلَتْ « رِيجانُ » ؟ بالسَّمِّ قَتلَتْها « جُنْرِيلُ » ؛ لِتَسْتَأْثِرَ بالْمُلْكِ وَحْدَها ! ولٰكِنَّ أمَلَها قدْ خابَ ، حِينَ رَأتْ قُوَّةَ « إدْجارَ » ، وانْتِصارَهُ عَلَى مُسْتَشارِها « إدمُنْد » ، الَّذى ناطَتْ (عَلَّقَتْ) بهِ كلَّ آمالِها فى التَّفرُّدِ بالْمُلكِ ، والِاسْتِئْثارِ بالسُّلْطانِ ؛ فَعاجَلَتْ نَفْسَها بِطَعْنَةٍ قاتِلَةٍ ، أوْدَتْ بها (أهْلَكَتْها) ، وَمَضَتْ بِرُوحِها إلى الْجَحِيم .

ورَأَى « إدمُنْدُ » أن كلَّ ما بَناهُ – بالغَدْرِ والعُقُوقِ والإساءَةِ إلى أَقْرَبِ النَّاسِ وأَبَرِّهِم بهِ – قَدِ انهارَ (سَقَط) أمامَهُ فى لَحْظَةٍ واحِدَةٍ ؛ فَصاح مُسْتَعْطِفا قاتِلَهُ :

« خَبِّرْنى بِرَبِّكَ : مَنْ أَنْتَ ؛ لِأَعْرِفَ اسْمَ مَنْ كُتِبَ عَلَى يدَيْهِ مَصْرَعى ؟ »

فَأجابَهُ « إدْجارُ » :

« أَنا ابنُ مَنْ كافَأْتَ إحْسانَهُ إلَيْكَ ، وبِرَّه بكَ ، وتَرْبيتَهُ إيَّاكَ ، أقْبحَ مُكافأَةٍ . أَنا ابْنُ الأَمِيرِ « جلُسْتر » ، الَّذى تَبَنَّاكَ ؛ فأَغْرَيْتَ بهِ أعْداءَهُ ، وَمَكَّنْتَ لَهُمْ مِن التَّنْكيلِ به ؛ حَتَّى حَرَمُوهُ

نُورَ عَيْنَيْهِ . وَقَدْ ماتَ – مُنْذُ دَقائِقَ – مِنْ هَوْلِ ما رَأَى مِن الْمَصائِبِ والأَحْداثِ . »

٦ – تَوْبَةُ الْهالِكِ

فصاحَ « إدْمُنْدُ » مُتفجِّعًا :

« ما أصدقَ ما فاهَتْ بِه شَفَتاكَ ! لَقَدْ حَقَّ عَلَيَّ الشَّقاءُ ، ولَقِيتُ ما أنا أهْلٌ لَهُ مِنَ التَّنكيلِ والْجَزاءِ ، وَحاقَتْ عَلَيَّ اللَّعْنةُ إلى الأَبَدِ . وَلٰكِنَّنى أتوَسَّلُ إلَيْكَ ضارعًا أنْ تُسْرِعَ بنجْدَةِ « لير » وَبنتهِ « كُرْدِلْيا » ؛ فقدْ أصْدَرْتُ أمْرِى بقتلِهما فى سِجْنِهما خُلْسَةً (خُفْيَةً) ، قَبْلَ أنْ أشْتبِكَ معك فى هٰذه الْمَعْرَكةِ الْقاضيةِ : لَعَلِّى أُكَفِّرُ – بإنْقاذِهما – عنْ شىْءٍ يسيرٍ مِمَّا اقْتَرَفْتُ من الْخَطايا والآثامِ الْمُوبِقة (الْمُهْلِكة) ! هلُمَّ فَأَنْقِذْهُما قبْلَ أنْ يَحُلَّ بِهما الْهلاكُ . »

ثُمَّ أُغْمِىَ عَلَيْهِ ، وَأَسْلَمَتْهُ جِراحُهُ إلَى الرَّدَى (الْموت) ؛ فَقَضَى مُشَيَّعًا (مُوَدَّعًا) باللَّعَناتِ ، كَما شُيِّعَتْ « جُنْرِيلُ » و « رِيجان » .

٧ – مَصْرَعُ « كُرْدِلْيا »

وَلَقَدْ بذَلَ الْحاضِرونَ كُلَّ ما فِي مَقْدُورِهِمْ ، فَأَسْرَعُوا لإِنْقاذِ الأَسِيرَيْنِ . وَلٰكِنَّ سُرْعَتَهُمْ لَمْ تُغْنِ شَيْئًا فى إِنْقاذِ « كُرْدِلْيا » الطَّاهِرَةِ الْقَلْبِ ، الزَّكِيَّةِ النَّفْسِ ؛ فَقَدْ نَفَذَ سَهْمُ الْقَضاءِ – وَلا مَرَدَّ لَهُ – ولَقِيَتْ حَتْفَها (هَلاكَها) مَصْلُوبَةً فِى السِّجْنِ ، قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَها أَيْدِى الرُّحَماءِ الْمُنْقِذِينَ

• • •

وَاسْتَوْلَى الذُّعْرُ وَالْخَبالُ عَلَى الشَّيْخِ « لِير » ، حِينَ رَأَى ما حَلَّ بِابْنَتِهِ الْوَفِيَّةِ ، الَّتِي لَقِيَتْ حَتْفَها فِي سَبِيلِ نُصْرَتِهِ ؛ فحمَلَ جُثَّتَها بَيْنَ ذِراعَيْهِ ، وَهُوَ يُصَيِّحُ مُغَوِّثًا ، نادِبًا :

« إِلَيَّ ، أَيُّها الْباكُونَ ! إِلَيَّ ، أَيُّها الْمُعْوِلُونَ (الصَّائِحُون بِالْبُكاءِ) ! إِلَيَّ ، أَيَّتُها الْحِجارَةُ والصُّخُورُ الَّتى سُمِّيَتْ أَناسِيَّ (بَنِى آدمَ) ! إِلَيَّ ، فامْزُجُوا بِدُمُوعِى دُمُوعَكم ، وَصَيِّحُوا مَعِى كَما أُصَيِّحُ . وَأَعْوِلُوا نادِبِينَ حَتَّى تَنْفَطِرَ (تَنْشَقَّ) السَّماءُ عَلَيْنا حُزْنًا وأَلَمًا !



لَقَدْ ماتَتْ! أَلا تُصَدِّقُونَ ؟

وَىْ ! هَلَكتْ ! أَمُكَذِّبِيَّ أَنتُمْ ؟

أنا لا أَجْهَلُ الفَرْقَ بَيْنَ المَيِّتِ وَالحَيِّ ! إنَّها لا تَنبِسُ بِبِنْتِ شَفَةٍ (لا تَلفِظُ بِحَرْفٍ) ! لَقَدْ هَمَدَتْ ، فَمَا تُحِسُّ شَيْئًا ! هاتُوا مِرْآةً فَأَدْنُوها مِنْ فَمِها ؛ فإنْ طَبَعَتْ عَلَيْها نَفَسًا مِنْ أَنْفاسِها ، فَلا تَثِقُوا بِي !

آهِ لَوْ بَقِيَتْ سالِمَةً إلَى جانِبي! إذَنْ غَفَرْتُ كلَّ ما حَلَّ بِي مِنْ أَحْداثٍ وَخُطُوبٍ!

إذَنْ أَنْسَتْنِيَ السَّعادَةُ — بِحَياتِها — كُلَّ ما غَمَرَنِي (ما شَمِلَنِي) مِنْ أَسْواء (مصائبَ) وأَحْزانٍ ! »

٨ - لَوْعَةُ الثَّاكِلِ

وَحاوَلَ خُلَصاؤُهُ وَأَصْفِياؤُهُ (أَصدقاؤُه المُخْلِصُونَ) : « كَنْت » و « إدجار » و « أَلْبانِي » جَميعًا أَنْ يُهَوِّنُوا علَيهِ مِن مُصابِهِ وفَجيعَتِهِ ؛ فَصَيَّحَ فِيهِمْ مُعْوِلًا ، وَقَدْ تَمَلَّكَهُ الذُّهُولُ :

« لَقَدْ ماتَتْ ، وَعَجَزْتُمْ عَنْ إنْقاذِها جميعًا ! فَما فائِدَةُ الْحَياةِ بَعْدَها ؟ واحَسْرَتا عَلَى شَبابِها النَّاضِرِ ! ما كانَ أَعْذَبَ صَوْتَها الرَّقِيقَ ! وَما كانَ أَطيبَ قَلْبَها الشَّفيقَ ! أَرَأَيْتُمْ أَزْكى (أَطْهَرَ) مِنْها نَفْسًا ، وأَكْرَمَ خُلُقًا ؟ فكَيْفَ امْتَدَّتْ إِلَى عُنُقِكِ يَدُ الْجانى الأَثِيمِ ؛ فَأَقْدَمَ عَلَى صَلْبِكِ ، دُونَ أَنْ تَأْخُذَهُ — فى شَبابِكِ — رَحْمَةٌ ؟

لَقَدْ صَرَعْتُ قاتِلَكِ بالسَّيْفِ ، وما تَشَفَّيْتُ مِنْ غَيْظى ، وَلا بَرَدْتُ بِذٰلِكِ غَليلى (لَمْ أَشْفِ حَرارَةَ حُزْنى وحِقْدِى) !

يا لَهُمْ مِنْ أَثَمَةٍ طُغاةٍ (مُجْرِمينَ مُعْتَدِينَ) ! لقَدْ خَنَقُوا « البُهْلُولَ » فى السِّجْنِ ، وَأَهْلَكُوهُ جَزاءَ وفائِهِ لى !

الوَيْلُ لِلْجانِينَ ! والوَيْلُ للسَّفَّاحِينَ (الَّذِينَ أَسالُوا الدِّماءَ) ! لقد تَرَكُوا الْجرْذانَ (الفِيران) وغيرَها من دَوابِّ الأَرْضِ ، دُونَ أَنْ يَنتزِعُوا أَرْواحَها مِنْها . ولٰكِنَّهُمْ ضَنُّوا (بَخِلُوا) عَلَى « كُرْدِلْيا » الوفِيَّةِ المُخْلِصَةِ بالْحَياةِ الَّتى تَنعَمُ بها الْخَيْلُ والكِلابُ ! »

٩ — خاتِمَةُ « لير »

وهكذا استَسلَمَ الْمَلكُ « لير » الْحَزِينُ الثَّاكِلُ (الَّذِى فَقَدَ وَلَدَهُ) لآلامِهِ . وما زالَ يَهْذِى حتَّى أَسْلَمَهُ هَذَيانُهُ إِلَى الْجُنُونِ ، واسْوَدَّتِ الدُّنيا فى عَيْنَيْهِ ، وغمرَتِ الأحزانُ قلبَهُ ؛ فَأَظْلَمَ ، ثمَّ أُغْمِىَ عليهِ .

وأَفاقَ لحظَةً قصيرةً ، فالْتَفَتَ إلى وزيرِهِ الْمُخْلصِ قائلا :

« كَنْت : لَقَدْ عرَفْتُكَ !

« كُرْدِلْيا » : لَقَدْ فَقَدْتُكِ إِلَى الأَبد ! »

ثمَّ أُغْمِىَ عليه ثانِيَةً ، وأَسْلَمَتْهُ أَحْزانُهُ إِلَى الرَّدَى . . . فمَاتَ !

انتهت القصة

مكتبة الكيلانى

مَجْمُوعاتُها : تُسايِرُ التِّلْميذَ فِي نَحْوِ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ قِصَّةً ، رائِعَةَ الصُّوَرِ ، بَدِيعَةَ الْإِخْراجِ ، مُتَدَرِّجَةً بِهِ مِنْ رِياضِ الْأَطْفالِ إِلَى خِتامِ التَّعْلِيمِ الثَّانَوِيِّ . ثُمَّ تُسْلِمُهُ إِلَى مَكْتَبَةِ الْكِيلانِيِّ لِلشَّبابِ .

مادَّتُها : تُقَوِّمُ الْخُلُقَ ، وَتُرَبِّي الذِّهْنَ ، وَتُعَلِّمُ الْأَدَبَ .

فَنُّها : يَشُوقُ الْقارِئَ وَيُمْتِعُهُ ، وَيُحَبِّبُ الْكِتابَ إِلَيْهِ .

لُغَتُها : تُنَمِّي مَلَكَةَ التَّعْبِيرِ ، وَتَطْبَعُ اللِّسانَ عَلَى فَصِيحِ الْبَيانِ .

ثَوْرَةٌ رَشِيدَةٌ ، أَجْمَعَ عَلَى تَأْيِيدِها وُزَراءُ الْمَعارِفِ وَزُعَماءُ التَّعْلِيمِ وَقادَةُ الرَّأْيِ فِي الشَّرْقِ ، وَكِبارُ الْمُسْتَشْرِقِينَ وَأَعْلامُ التَّرْبِيَةِ فِي الْغَرْبِ .

أَوَّلُ مَكْتَبَةٍ عَرَبِيَّةٍ عُنِيَتْ بِتَنْشِئَةِ الطِّفْلِ عَلَى أَحْدَثِ أُسُسِ التَّرْبِيَةِ الصَّحِيحَةِ . تَوالَتْ طَبَعاتُها الْعَرَبِيَّةُ ؛ فَتَثَقَّفَ بِها الْجِيلُ الْجَدِيدُ فِي بِلادِ الْعُرُوبَةِ ، وَلَمْ يَخْلُ مِنْها بَيْتٌ عَرَبِيٌّ .

تُرْجِمَتْ إِلَى أَكْثَرِ اللُّغاتِ الشَّرْقِيَّةِ وَبَعْضِ اللُّغاتِ الْغَرْبِيَّةِ .

مَدْرَسَةٌ حُرَّةٌ ، إِذَا عَرَفَها التِّلْمِيذُ ، سَعَى إِلَيْها بِلا تَرْغِيبٍ وَلا تَرْهِيبٍ

كانَتْ أَكْبَرَ أُمْنِيَّةٍ لِلآباءِ ، وَهِيَ الْيَوْمَ أَشْهَى غِذاءٍ ثَقافِيٍّ لِلْأَبْناءِ .

رقم الإيداع	١٩٩٧/١٣٧٦٥
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5521-1

٧/٩٧/١٠٢

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)